إسهام في الفن العربي:

الفن المغربي تعبير رائع عن مدارك الأجيال

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

سبق للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ان نشر دراسة ضافية باللغة الفرنسية عن الفن المغربي منذ عشر سنوات (1961) تحت اشراف جامعة محمد الخامس بالرباط وتقديم رئيسها آنذاك فضيلة الاستاذ الكبير محمد الفاسي وزير الدولة المكلف بالثقافة والتعليم الاصلي سابقا ومما جاء في هذا التقديم : «ما اكثر المصنفات حول الفنون في البلاد الاسلامية وخاصة في المغرب ، ولكن توجد من بينها دراسات قيمة سواء من حيث التقنية ام التطور التاريخي الا ان معظم هاته المؤلفات ليست في متناول الجمهور لانها تظل مغمورة في بيئة الاخصائيين .

فكتاب الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الذي نقدمه اليوم يسد اذن هذا الفراغ ، والاستاذ بنعبد الله لا يزعم لكتابه القيم مقام المصنفات الكلاسيكية الكبرى مثل ما انتجته قرائح الاساتذة مارسي وريكار ، وطيراس . ومع ذلك فان كتاب الفن المغربي يقدم مساهمة هامة في دراسة الفن القومي منذ اصوله .

ان منطقية المدارك ، وكذلك مدى ودقة المستندات تجعل من هذا الكتاب في آن واحد موجزا مركزا وكتابا للامتاع والمؤانسة .

فالباحث المحنك يستمد من خلال آلاف الجزئيات الغميسة والبدائي يلمس في ثناياه أروع اداة للتوجيه والتكوين ، في حين يجد فيه كل القراء على اختلاف اتجاهاتهم ومستوياتهم ديوانا حافلا بالايحاءات والتصويرات الكفيلة بفتح آفاق جديدة انطلاقا من الاحداث التاريخية المحصة .

فهاكم مثلا نظرة متبصرة دراكة للفن البربري ، فقد استخلص السيد عبد العزيز بنعبد الله من النصوص كما استمد من ملاحظاته الخاصة ارتكازا على ما كتب امثال ريكار وطيراس هاته الفكرة الشخصية التي هي اصيلة بقدر ما هي حقيقية ، وهي ان المنزع الفني البربري لا يخلو من مظهر عربي بدوي ثم نرى المؤلف يلفت نظر القاريء الى نوع من التزاوج غني بالصور المجسمة والايعازات الكشافة : « ان الفن البربري يرتبط حقا على ما يلوح بهندسة الواحات التي اشاعتها مصر الفرعونية القديمة ان لم تكن قد خلقتها » .

وهنالك فصل يثير اهتمام المغاربة بكيفية خاصة ، وهو الذى افرده الاستاذ عبد العزيز للعصر الموحدي حيث يؤكد بحق ان الاستاذين طيراس ومارسي يربان فى المساجد الموحدية اروع ما ابدعه الاسلام ، وهكذا لم يترك المؤلف مجالا للصدفة والاتفاق كما انه لم يهمل اي ميدان يتصل بالموضوع حيث انكب على دراسة جميع المظاهر الفنية والحضارة المغربية كهندسة المساجد والمعاهد والمعاقل والحصون والمؤسسات العمومية والزخارف والرسوم ، والتطورات ملقيا اضواء كاشفة عن كل عصر من خلال كل الملابسات التاريخية .

وهنالك مئات الامثال الدقيقة التى تتبلور فيها هاته الفكرة الاساسية وهي ان اوربا مدينة للعرب لا للاغريقيين بالمعطيات الاولى لصناعتها الحديثة .

فالاندلسي عباس بن فرناس هو اول من فكر فى صنع اداة للطيران جربها بنفسه كما ابتدع طريقة جديدة لصنع الزجاج من الحجر ، فانبثقت آنذاك صناعة رائعة ويشير الاستاذ ايضا الى ما وقع الكشف عنه فى مكتبة الاسكوريال مما يؤيد ان العرب هم اول من استعمل الورق المصنوع من القطن ، وهو عبارة عن مخطوط يرجع تاريخه للقرن الحادي عشر الميلادي .

وقد اوضح المؤلف انه اذا كانت الصناعة الكيماوية فى القرن الثامن عشر الميلادي قد قلبت الاوضاع بالنسبة للانتاج الحديث فما ذلك الا بفضل الكشوف العربية لبعض الاجسام التى جهلها الاغريقيون كالبوطاس ونترات الفضة والكحول والحامض الكبريتي .. الخ .

واترك للقاريء لذة الكشف عن كنوز هذا الكتاب الذى تمتاز نصوصه بقيمة سامية والذى تزينه روعة ، تلك المجموعة الشيقة من الصور والرسوم التى يتحلى بها ، والتى ستساعد البحاثين كما ستساعد الطلبة ومختلف القراء على تذوق متعة عارمة وتركيز نظراتهم على قاعدة موضوعية رصينة .

فالاستاذ عبد العزيز بنعبد الله يقدم اذن كتابا قيما للجمهور وخاصة هواة الفنون الجميلة الذين سيفتح لهم هذا المصنف القيم مجالات طريفة للتكوين والاستعلام .

وقد عرف المؤلف بنصاعة اسلوبه وعرضه ، وبرقة ذوقه ، كيف ينير الطريق بروعة وفعالية .

وهاكم نص هذا البحث الذى ينشر اليوم باللغة العربية كاملا لاول مرة :

من خواص الفن الاسلامي انه مزيج من الفن الشرقي والفن الخاص بالاقطار التى اعتنقت الاسلام مثال ذلك ان التنميق الهندسي كان موجودا قبل الفتح الاسلامي فى الفنين القبطي والبربري وقد اقتبس الفن الاسلامي من الفرس القباب المزخرفة والاقواس الرخوة والمقربصة .

لا يكاد يوجد فى المغرب سوى الدور ذات السطوح ، ففى الاطلس نجد ما يسمى بتغرمت اي الدار المحصنة وهي دار مربعة تقوم فى اركانها ابراج وفى سورها مدخل يتصل بغرفة تحاذيها ثلاث غرف اخرى فى باقي الواجهات الداخلية . وفى زاوية من زوايا هذه الغرف درج تؤدي الى الطابق الاول الذى هو صورة طبق الاصل للطابق السفلي حيث الخدم والماشية اما الحصون الركنية فانها تستعمل كذلك كمخازن للمؤن .

ويوجد ايضا عند البربر ما يسمى بالمخازن المحصنة اي ايفرم وهي عبارة عن اجنحة منفصلة تنفتح فى ساحة داخلية وتقوم البناية كلها على

شاهق نقطة استراتيجية لذلك تستخدم كمستودع للمؤن وكقلعة يلجأ اليها الناس عند الخطر . وهناك نوع من المستودعات يسمى « اجدير » وهو عبارة عن هري عام يتخذ شكل دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي الى ساحة مركزية تنفتح منها اربع او خمس طبقات من الغرف فى اطرافها ابراج وتحتوي فى الغالب على مسجد وهري عام وغرف للحراس ودار الندوة للاعيان وفى وسطها صهريج لحفظ الماء للحاجة .

والاغالبة هم اول من ادخل الفن الشرقي الى افريقية ايام الفاطميين وقد وضعوا اسس الفن الجديد فى القيروان حيث جددوا مسجد عقبة بن نافع على نمط مساجد دمشق والقاهرة ثم جاء الخوارج فأقاموا فى تاهرت وسجلماسة مآثر عفى عليها الزمان ثم اتخذ الفن مظاهر جديدة ايام بني زيري فى اشير وقلعة بني حماد وبجاية حيث يتبلور التأثير الشرقي فى مزيج من الهندسة البربرية العربية وفى القرن الثاني الهجري بنى المولى ادريس مدينة فاس التى يقول عنها كزيل بأنها آية فى الاقتباس من الفن الشرقي .

ولكن عندما جاء المرابطون لم يجدوا فى متناولهم سوى نتف من بقايا الفن البربري ، ولم تكن لهم صلة مباشرة بالشرق وفنونه التى لم يلمسوها الا عن طريق الاندلس فاتسمت الهندسة المعمارية بميسم جديد ثم اتجه الموحدون فى هذا الاسلوب الاسباني المغربي ، ولعل اول بوتقة انصهرت فيها مع الايام مظاهر الفن المعماري الشرقي المغربي هي مدينة فاس التى اقامها المولى ادريس عام 192 هـ (1) بالموضع المعروف بجراوة وقد احاط عدوة الاندلس بسور فتح فى جوانبه عدة ابواب وجهز المدينة بجامع للخطبة وهو جامع الاشياخ ثم بنيت عدوة القرويين عام 193 بدار القيطون بسورها ومسجدها (مسجد الشرفاء) .

وقد اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التى لم يعد يخلو منها ربض ولا زقاق لاسيما فى فاس كما اهتموا ببناء القلاع على غرار الحصون الاصلية مع الاقتباس فى آن واحد من الاندلس . واول ما تجلى هذا الاقتباس فى فاس حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة من صناع طوروا مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها وخاناتها كما استقدم علي بن يوسف المهندسين الاندلسيين لبناء قنطرة تانسيفت .

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما ابدعوه من روائع تبوؤ المقام السامي فى تاريخ الفن الاسلامي لاسيما فى عهد يوسف الذى عاش فى اشبيلية حيث زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان ابدع بناء فى تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة فى اشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها خيرالدا وحسان والكتبية) واصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها اشبه ببغداد فى الشرق كما اشبهت مدينة فاس دمشق فى روائها الفني وطبيعتها الخلابة وقد ظل للصناع المجلوبين من الاندلس اليد الطولى فى عهد الموحدين الذين نشروا الفن الاندلسي فى جميع ربوع افريقية حيث تجدد الاتصال بين الفن المغربي والفنين المصري والعراقي السائدين فى بجاية ومهدية وتونس الخضراء .

وقد خلف بنو مرين الموحدين فى الربوع الافريقية فكان للفن المريني ميسم خاص اذا قورن بالفن عند بني عبد الواد فى تلمسان والحفصيين فى تونس فى حين واصل بنو نصر فى غرناطة تقاليد الفن الاندلسي .

غير ان الطابع العام لم يتغير وكذلك الاتجاه الفني الذى انصرف عنه بنو الاحمر الى زخرفة القصور فى حين تجلى عند المرينيين فى اقامة المدن المحصنة والمساجد والمدارس .

وقد استعادت فاس دورها كعاصمة غير ان ابا يوسف المنصور اقام مدينة فاس الجديدة او مدينة البيضاء بقصرها الملكي ومساكن الضباط ومعسكرات الجند والمرتزقة واحيط فاس البالي بأسوار جديدة.

ويتجلى نشاط المرينيين المعماري فى شعورهم بالحاجة الى اقامة المدن الجديدة على ان ابا يوسف صنع المارستانات وبنى المدارس بفاس ومراكش والزوايا فى الفلوات ، ولم يفته فى كل ذلك

(1) راجع الطبعة المطولة لمظاهر الحضارة وكذلك كتابنا تاريخ الفن المغربي للتعرف الى مختلف الروايات حول تاريخ بناء مدينة فاس .

الزخرف الفني الرائـق الـذى يطبـع المؤسسـات الجديـدة .

وقد لاحظ ابن مرزوق في مسنده « ان انشاء المدارس كان في المغرب غير معروف حتى انشئت مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس (مدرسة الصفارين) عام 760 ثم مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء ثم مدرسة الصهريج ثم مدرسة الوادي ثم مدرسة مصباح .. ثم انشأ ابو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط مدرسة » فقامت عند ذاك مدارس لايواء الطلبة في تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور وآسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد (تلمسان) والجزائر وقد اقام بنو مرين كذلك « من آسفي الى جزائر بني مزغانة واول افريقية محارس ومناظر اذا ظهرت النيران في اعلاها تتصل المراسلات بينها في الليلة الواحدة او في بعض ليلة » .

ولعل اروع مثال يبرز البراعة التي بلغها المهندسون والصناع هو ذلك القصر الذى بناه ابو الحسن في ظرف اسبوع، وقد اشتمل على اربع قباب مختلفة ودويرتين تتصلان منقوشتي الجدر بالصناعات المختلفة .

ولكن ما هي ميزات الفن المريني ؟ ان الجامع الكبير في تازة وكذلك مسجد ابي يعقوب المريني في وجدة يحتفظان احيانا بتلك الفخامة التي يتسم بها الفن الموحدي ولكنهما يضيفان رقة الاشكال وتشعب الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقربصات والزليجات ويلاحظ في المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح في الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق .

وهذه المدرسة هي مدرسة ومسجد في آن واحد مجهزة بمنارة ومنبر للجمعة ومنجانة ذات ثلاث عشرة من الطسوس « شعار كل ساعة فيها ان تسقط صنجة في طاس وتتفتح طاقات »

ومن خواص الفن المريني النقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج .

اما في عهد السعديين الذى بدأ الفن المعماري يتحجر فيه نسبيا فانه يمتاز (بقصر البديع) الذى وصفه الافراني بأنه يفوق بغداد روعة وجمالا ورغم هذا التحجر لا يمكن ان يعتبر هذا الفن سوى امتداد للفن المغربي الاندلسي مع مميزات جديدة حيث ان المنصور الذهبي استقدم الصناع والمهندسين من مختلف البلاد وحتى من اوربا وقد هدم المولى اسماعيل قصر البديع الذى انتشرت نتف من انقاضه في مختلف المدن .

ومن المآثر السعدية الباقية بعض مساجد مراكش (المواسين والقصبة وباب دكالة) وقبور السعديين الرائعة وجناحان في جامع القرويين .

وقد كفل العلويون امتداد هذه التقاليد الفنية فجهز مولاي رشيد مدينة فاس بالحصون على غرار بني مرين واقام مدرسة الشراطين ولكن المولى اسماعيل الذى نشر اول الامر الحصون والقلاع الجديدة في جميع انحاء المغرب انصرف بكليته بعد ذلك الى بناء قصر الرياض بمكناس وتنميق حدائقه على نسق قصر فرساي حيث كان ينافس لويز الرابع عشر ملك فرنسا وقد استعان المولى اسماعيل بالخمسة والعشرين الف اسير مسيحي على انجاز مشاريعه الضخمة التي وافاه الاجل دون اتمامها فاكمل المولى عبد الله اسوار القصبة وباب منصور العنج .

وقد اراد المولى اسماعيل ان تكون مدينة الرياض شبيهة بفرساي والبديع ولكن تمتاز بشوارعها الواسعة واحيائها المسورة .

واستمرت اقامة القصور على النسق التقليدي كدار المخزن قرب انقاض قصر البديع بمراكش وكقصر الباهية وكالقصور الخاصة التي تنتشر هنا وهناك في حواضر المغرب .

اما هندسة المساجد فقد كانت مزيجا من هندسة الدول السالفة .

الفن المغربي قبل التاريخ

لقد اضطر الانسان في عصور ما قبل التاريخ الى الالتجاء للكهوف المنحوتة في صخور الجبال وما زلنا نشاهد الى الآن في منحدرات الاطلس بعض المغاور العتيقة المتهدمة وقد كانت هذه المآوي الطبيعية

مركز حياة نشيطة كما تشهد بذلك بقايا الادوات الغريبة وعظام الانسان والحيوان اللذين عاشا في هذه الكهوف والذين القت تلك المكتشفات اضواء على اساليب عيشهما .

لقد اختار الانسان الاول ـ كفالة لامنه وطمانينته ـ هذه المخابع السامقة في قمم الجبال فرارا من الضواري المفترسة وتوجد الى الآن في هضاب تادلا كهوف تحتوي على غرف منحوتة في الحجر الصلد ينفذ اليها النور من خلال كوات واسعة غير ان الاواني والآلات التي عثر عليها تختلف اشد الاختلاف عن الاثاث البربري الحالي ولكن تنم عن شعور فني يزداد وضوحا في الصور المنقوشة على الصخور ومن ابرز هذه الرسوم (كبش زناكة) Le bélier de Zenaga المكتشف في فكيك والذي يعطينا صورة عن الفن المغربي قبل التاريخ في مرحلته الطبيعية (اي تصوير المناظر الطبيعية) التي عقبتها مراحل ادت الى ما نشاهده اليوم من نقوش حيوانية في الهندسة المعمارية البربرية وتوجد ثلاثة آلاف وخمسمائة صورة منحوتة على الصخر في الاطلس الكبير ومما يساعد على تحديد تاريخ نحتها وجود صور لحراب ورماح ـ من النوع المعروف في عصر البرونز الثاني باوربا ـ كاسبانيا والبرتغال وبريطانيا وايرلندا وايكوسيا وهي قريبة الشبه بأسلحة جنوب شرق اسبانيا وبذلك يمكن ضبط تاريخها بالنصف الثاني من الالف الثانية، وتوجد منها نحو الثلاثين في جبل اوكايمدن وياكور . ومن بين الصور الانسانية التي عثر عليها المكتشفة في الاطلس الكبير توجد اربع تلفت النظر احداها مسلحة بخنجر وتحمل اربعة اسورة على الاقل علاوة على نحو 14 الى 17 من السمات البارزة الواضحة منها اربع حول العنق واربع على الصدر والشخص الثاني بقبعته وحذائه وهراوة في اليد اليمنى وخنجرين في العضد الايسر اما الرجل الثالث فسماته غامضة ويظهر ان عصى ماثلة الاثر فوق راسه وما زالت معالم الرجل الرابع بارزة منها ذكره وحربته وخنجر فوق راسه ويلاحظ ان الشخصين الاول والثالث يوجدان في اوكايمدن والآخرين في ياكور (عزيب نكيس وفيف كاكين) ويتاكد ان اثنين منهم من المحاربين .

ولكن منذ هذا العصر بدا البرابرة يتجمعون في قرى في شكل خيام واخصاص شاهد منها الرومانيون بافريقيا الشمالية وقد عثر بالمغرب على عدة ادوات تؤكد هذه النظرية ففي احد مناجم الدار البيضاء وقع الكشف عن حصيات ذات بريق تناوبي قديمة العهد وعثر منذ عام 1941 على حصيات شبيهة بهذه في منجم سيدي عبد الرحمان قرب انفا . وترجع الى نفس العهد التاريخي المخلفات الحجرية الموجودة في سوق الاربعاء وعرباوة وغابة المعمورة (نوع احمر اللون) واحواز الرباط (مجموعة من الحصيات المنجورة) قرب دوار الدوم .

ومهما يكن تنوع مناطق هذه المناجم فانها تعتبر اقدم صناعة معروفة بالمغرب وان وجود آلات مختصة بين هذه المصنوعات ليبشر بامكان الكشف عن بقايا مصنوعات اعرق في القدم .

وعثر كذلك على مناجم في نجود مدينة سلا استخلصت منها صخور ضخمة (متران الى ثلاثة امتار) ويوجد نفس النوع في شالة ومطار الرباط مع تنوع اكثر في اطوال القطع واختلاف المواد الاولية

اما في العصور التاريخية فان البرابرة اقاموا لحفظ ثرواتهم نوعا من « القصور » او الحصون اسندوا حراستها لرجال مسلحين واحيانا ابراجا على قمم الجبال لايداع العتاد والمال والمؤن .

وكانوا يلبسون اول الامر مخيطات بسيطة تستر العورة ثم جلود الحيوان تقية من البرد القارس ثم الجبة الصوفية ثم اكسية اشبه بالبرانس مع تزيين رؤوسهم احيانا باكاليل من الريش .

والسلاح كان يصنع من الحجارة في العهد الحجري الذي امتد طويلا في القارة الافريقية حيث لم يعرف الناس منذ العصور الاولى معادن الحديد والبرونز والنحاس ـ ثم استعمل البربر الحراب فالاقواس فالخناجر وكانت درقات الدفاع تصنع من جلد الفيلة وهذه الاسلحة وكذلك الآلات الاخرى كانت تنقش اولا بالاظافر ثم بأسنة حجرية ثم اسنة متخذة من اطراف العظام المحددة وتطور صنع الاسنة الى نوع اشبه بأسنان المناشير .

وكان البرابرة بالاضافة الى ما يصنعونه من انواع المجوهرات يرسمون على الحجارة صورا تمثل حياتهم اليومية ويتحلون نساء ورجالا بالاسورة والعقود وينفرد الذكور بالاقراط والنساء بالخلاخل وكانت الاواني كلها خزفية والمراة فنانة تتولى نقش مختلف الاوعية كما تتكفل بنسج الزرابي . وكان الموتى يدفنون في مغاور طبيعية ثم صاروا يوضعون

في كهوف مربعة او مستطيلة تنحت في الجبال وتحشر فيها جثث متعددة بعد ثنيها وكسر عظامها ولكن منذ القرن الثالث الميلادي صار بعض المغاربة يحرقون موتاهم كاليونانيين والقرطاجنيين كما تعودوا صبغ الموتى وايداع الحلى والاثاث مع مالكها في مرقده الاخير وتعتبر ناحية تافيلالت من بين النواحي الغنية بالمقابر التي يرجع تاريخها الى ما قبل الاسلام فقد عثر عام 1938 على ما سمي بمقبرة ارفود الواقعة على الضفة اليسرى لوادي زيز حيث وقع العثور على نحو 1200 حجرة لتبليط الاضرحة وقد تم الكشف في اثنتين منها عن عظام بشرية ما زال من السهل التعرف على هويتها .

وكان الفن البربري يستمد من الاشكال الهندسية ـ زيادة على بعض الرسوم الطبيعية ـ ولكن قلما كان يستعمل الاقواس والحنايا وانما هما خطوط وتعاريج .

واروع ما في هذا الفن حيويته واصالته مما ساعده على الصمود في وجه تأثيرات الرومان والاسبان واقل ما يمكن ان نستخلصه من هذا هو ان وفرة الاثاث والاسلحة لدى المغاربة منذ عصور ما قبل التاريخ تنم عن تدفق حياة اجتماعية لا بأس بها.

— * —

اما في العصور التالية فقد اسس الفينيقيون مدينة قرطاج بافريقيا اواخر القرن التاسع قبل الميلاد وفي منتصف القرن الخامس اجتاز هانون بدوافع تجارية اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) على ظهر ستين مركبا واقام على ظواهر سواحل المغرب سبعة مراكز احدها في مصب الساقية الحمراء ولعل هذه الاقامة القرطاجنية العابرة تركت آثارها اذا اعتبرنا بعض المظاهر المشتركة في الحضارتين البونيقية والمغربية فالطابع القرطاجني ما زال يسم صناعة المعادن والجلد والخزف المذهب والاصباغ والنسج والآلات الفلاحية والبحرية ويرى المؤرخ كوتيي ان الثياب البونيقية كانت شرقية بقميصها الطويل ذي الاكمام العريضة وطربوشها وكساء السفر الذي يشبه الكندورة (الفوقية الفاسية) بل وحتى البرنس الحالي (2) والاعراف القرطاجنية نفسها كانت شرقية فمن ذلك تعدد الزوجات وانواع الحلي النسوي وشكلية الاجداث والشواهد وحركة السجود وتحظير اكل الخنزير «والخمسة» (اوانيد) ... الخ وقد تساءل المؤرخ كزيل هل استمرار معالم الحضارة البونيقية بالمغرب هو الذي ساعد على انتشار اللغة العربية القريبة من البونيقية بين البربر مؤكدا ان مدينة قرطاج قد هيأتهم من بعيد الى تقبل القرآن ككتاب مقدس وكدستور .

وقد خلفت قرطاجنة هذه حاضرة روما التي بسطت سيطرتها على افريقيا الشمالية طوال 7 قرون (من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الخامس بعد ازدياد المسيح) .

وقد كان اقليم النفوذ الروماني في موريطانيا الطنجية (ابتداء من عام 42) يشكل قطعة صغيرة تمر حدودها جنوبي الرباط من المحيط الاطلنطيقي الى ملتقى وادي ابي رقراق وعكراش اما في شرق المغرب فان الآثار الباقية تحمل على الظن بأن هذه الحدود امتدت الى الاطلس الاوسط جنوبي مكناس وفاس وبذلك تكون منطقة الاحتلال الرومانية عبارة عن مثلث بين سبتة والرباط وفاس تندرج فيه طنجة كعاصمة بعد قصر فرعون (وليلي) .

والغالب ان طنجة كانت اعظم مدينة في الجزء المغربي المحتل من طرف الرومان وما زالت المدينة تحتفظ ـ كشاهد على الاستيطان الروماني ـ بانقاض كنيسة لم يبق منها سوى تصميمها اما الآثار الاخرى المحفوظة فانها لا تعدو بعض الكتابات والنقود والمنتجات الفنية مع تمثال امراة .

وقصر فرعون(3) عبارةعن مدينة مستطيلة الشكل ولكن غير منتظمة المساحة (يتراوح طولها وعرضها بين 700 متر الى ما بين 300 و 500 متر) تتدرج بناياتها في سفح جبل زرهون حيث ضريح المولى ادريس الاول ونظرا لانعدام وثائق تكشف عن وضع هذه المدينة التاريخية فان مصلحة الآثار القديمة التابعة لوزارة التعليم العالي تعمل على تجديد هذه المدينة التي هي اعظم حاضرة رومانية في الاقليم الداخلي بفضل الحفريات التي كشفت عن قوس كاراكالا (4) او قوس النصر وعن

---

(2) تاريخ افريقيا الشمالية ص 92

3) نشرنا بحثا مطولا عنه في العدد الثاني من مجلة « اللسان العربي »

(4) امبراطور روماني نجل سبتيم سيفير Septime Sévère ولد في ليون عام 188 م وتولى الملك بين 211 و 217 م .

ازقة ودور ومعاصر للزيتون وقد وقع العثور على الساحة المركزية للمدينة بكنيستها وازيحت الانقاض عن بدائع فنية رائعة منها كتب من البرونز (وهي قطعة مقتبسة عن الاصل اليوناني المنحوت فى القرن الخامس قبل الميلاد) وراس مصنوع من المرمر ونقوش بديعة تمثل صورا حيوانية وانسانية فى قالب فسيفساء وكانت الساحة الداخلية المحاطة بالاروقة هي القلب النابض للحياة العمومية فى المدينة ويقوم فى جانبها الغربي حي لا شك انه امتداد لدسكرة أهلية كما توجد شرقي قوس النصر شبكة واسعة من الدور الثرية بقاعات استقبالها الواسعة وبساحاتها المحاطة بالفرف على النمط المغربي وقد عثر على بقايا قنوات كانت تحمل المياه من زرهون الى سقايات المدينة وحماماتها أو الاحواض المنبثقة داخل المنازل اما الزخرف داخل البيوت فان نقوشه تشكل احيانا دوائر ناتئة رائعة او نحوتا مفرغة علاوة على الرسوم الزهرية فى الحجارة والتسطيرات الهندسية ذات الطابع البربري ورؤوس الاساطين البسيطة والمزخرفة بصورة نورية عريضة الاوراق جميلة التقاسيم وتماثيل ودمى واثاث من البرونز تشكل مجموعة فنية ثرية نادرة المثال وتوجد انقاض مدينة باناسة Banassa الرومانية على الضفة الجنوبية لنهر سبو وهي تحتوي ايضا على ساحة مركزية ودور كبرى جميلة ومستحمات تتجلى روعة مبانيها الاصلية فى قطع البرونز الفنية التى عثر عليها، اما تموسيدة Thamusida الواقعة كذلك على نهر سبو على بعد ستة عشر كلم . من القنيطرة فان بقاياها المعمارية أقل روعة وجمالا من بناسة، وقد تم الكشف فى شالة عن قسم من الساحة المركزية Forum التى تنتهي غربا بقوس نصر وبقلعة رومانية وعمارتين جنوبا وشمالا كما كشف فى الجنوب الشرقي للساحة عن آثار دور رومانية وعن مقبرة فى المكان الذى يقوم عليه مقر السفارة الفرنسية الآن ولم يعثر على حمامات ولا على اشياء فنية باستثناء كتابات جميلة تلقي بعض الضوء على الحياة الرومانية فى هذه المدينة العتيقة الا ان الحفريات الاخيرة ازاحت التراب عن ثلاثة من التماثيل ما زالت تحت الدرس ، ومن المدن الاثرية الهامة ليكسوس الواقعة على مسافة اربعة كلم . شمالي العرائش وعلى الضفة اليمنى لنهر لوكوس وهي فينيقية الاصل (القرن السادس قبل الميلاد) احتلها الرومان واقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهي معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس او تشمس التى يقال بأن حدائق هسبيريدس ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها فى الجزر الخالدات وهي الجزر «السعيدة» السبع التى اكتشفها الاسبان فى القرن الخامس عشر ، ويرى علماء الآثار ان هذه المدينة تحتوي على كنوز فنية لا تقدر لذلك يولي المسئولون من الاثريين هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة الآن وقد عثر على البناء الفينيقي فى الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الروماني على طبقتين اعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة اخيرة يظهر انها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه ، اما النماذج الاثرية القديمة فهي اوان من الفخار تطور صنعها فدهنت ايام الفينيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل منوعة كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوي على غرف مستطيلة كالفرف المغربية الحالية وارضها مبلطة بالفسيفساء المرمري وهذه المدينة التى تنقسم الى عدة احياء كل حي بسوره الخاص تعتبر (هي ومدينة شالة) المدينتين الوحيدتين الواقعتين فى مركز بحري هام وكانت مستودعاتها الغنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيوت .

وقد عثر على مدن ازلية اخرى مكان سبتة والقصر الكبير (اوبيدوم نوفوم) وتمودة (على بعد ست كيلومترات ونصف من تطوان) واصيلا وفريدى (على مسافة كيلومترين اثنين من عرباوة) وتريمولي (فى المكان الذى كانت تقوم البصرة فى القرن الرابع الهجري) .

وقد لاحظ تيسو (5) ان مدينة القصر الكبير مبنية فى معظمها بأدوات ازلية العهد وتوجد على احدى قواعد منارة الجامع الكبير كتابة اكتشفت منذ عام 1871 م وهي تشهد بوجود ضريح فى ذلك المكان .

(5) كتاب الجغرافية المقارنة لموريطانيا الطنجية ص 162 .

وقد ظلت اهم هذه المدن قائمة الذات فى القرن الخامس الميلادي بعد انسحاب الرومان وكان بعضها يمثل فى القرن الرابع ابرز حواضر المغرب الاسلامي (6) .

مغطيات الفن العربي السيوناني

ان صنع الاشياء العادية واقامة بعض المؤسسات البسيطة كان الشغل الشاغل لسكان المغرب قبل التاريخ ، فقد احتد ذكاء هؤلاء ، وتطورت قواهم الفكرية ، وتفتحت مخيلاتهم بفضل الاحتكاك الموصول بالضروريات اليومية ومقتضيات الحياة المتجددة. فالفكر الذى تفتقه الحاجة يسعى فى الخلق والابداع فيبتكر الهيآت والاشكال فى غير تناسق باديء ذي بدء ، ثم يندرج فى تطور بطيء يحدوه الى تقوية التساوق وتعزيز الانسجام . وتعمل الغريزة فى آن واحد عملها البناء ، فتضفي على العمليات الذهنية مظهرا من الروعة والرواء ، بقدر ما تنمو وتتبلور فى ذهن الانسان حاسة الجمال . وقد تولد عن تلك العوامل الاجتماعية والفكرية نزوع الى التنسيق وميل الى فن الزخرف والتنسيق . وقد عثر المنقبون منذ قديم على آثار فنية خالدة فى المغاور والكهوف التى يرجع عهدها الى ما قبل التاريخ .

وتوجد فى المغرب مصلحتان اثنتان : تهتم احداهما بحفريات العصور القديمة ، والاخرى

---

(6) تاريخ لمغرب ـ طيراس ج 1 ص 61 ـ البيان المغرب ج 1 ص 133 و 330 .
سبق للمؤلف ان نظم قصيدة اشار فيها الى هذه المدن الرومانية بعنوان « نوفوم » او القصر الكبير » جاء فيها :

« نوفوم » (أ) ثانية الحواضر ارفلي ... فى العزبين توائم الاقمار
اختارك الرومان حاضرة الهنا ... نزاحة عن لكس وقفار
مهد الحضارة جنة الدنيا التى ... عرفت ب «هسبريد» (ب) فى الامصار
جرت ذيول الفخر فى خيلائها ... فغدت « وليلي » ـ طمرة الأغمار
بذت عواصم «تنجس» و «تمودة» ... وتموسيدا (ج) انعم بها من دار
ما ان بدا قصر العوارف فى الدجى ... الا بدا فيض من الانوار
او اينعت وضح النهار كرائم ... الا سما ومض من الاسرار
يا بلدة اكرم بها من بلدة ... يا موطن الاطهار والاخيار
اليمن نبع فيضه واليسر ثر ... ت عينه والسيل خير نضار
الخير انت شعاره والنبل انـ ... ـت دثاره والبيت خير مزار
العقد انت نظامه والفضل انـ ... ـت جماعه والجود خير منار
فيك الاجنة راضعات للتقى ... فيك الجنان لواقح الأزهار

(أ) نوفوم Oppidum novum اي الحاضرة الجديدة التى بنيت بعد ليكس Lixus (بنيت هذه عام 1101 قبل الميلاد) وهي ثاني مدينة بنيت فى المغرب فى المكان الذى تقوم عليه الآن مدينة القصر الكبير وهي موطن الافذاذ من العلماء ورجال الفكر ومعركة «وادي المخازن» التى اندحر فيها البرتغال

(ب) Hespérides هي جزر اسطورية فى ساحل الاطلنطيك كالجزر الخالدات او جزء من ساحل المغرب الاقصى قرب ليكس وهي حدائق عدنية فيها تفاح الخلود حسب الاساطير .

(ج) تنجس هي Tingis او طنجة الحالية وتقع تمودا Tamuda قرب تطوان وتاموسيدا Thamussida قرب مهدية بمصب نهر سبو (قرب القنيطرة الحالية) .

بالحفريات الاسلامية وقد سارت الاولى خطوات واسعة فى الكشف عن مخلفات الفينيقيين وآثار الرومان بالمغرب، واسفر نشاطها المستمر منذ عقود من السنين عن تحقيقات لكثير من المعطيات التاريخية، كما كشفت ابحاثها القناع عن بعض مظاهر الحضارة المغربية منذ فجر التاريخ الى الفتح الاسلامي . ونضرب مثلا لذلك بالكهوف الثلاثة المكتشفة فى مغارات اشقار قرب طنجة . فقد لاحظ شارل تيسو منذ عام 1875 ان هذه الكهوف يرجع عهدها الى ما قبل التاريخ وانها كانت راس معبر للبحارين الاوائل الذين اجتازوا مضيق جبل طارق . وقد شرع المغرب فى دراسة هذه الحفريات منذ عام 1906 بواسطة البعثة العلمية الفرنسية . فعنى طول سواحل المحيط الاطلنطي ترتفع نجود صغرى من دقيق الاحجار الرملية توغل الماء فى تضاريسها فحفر سراديب مختلفة تمتد احيانا مسافة ثلاثين مترا فى باطن الارض . والذى يضفي اهمية خاصة على هذه الكهوف هو ما عثر عليه فى حناياها من ادوات واوان مصنوعة من الجير والخزف او منحوتة فى الحجارات الكبرى .

ففى طبقات كل كهف من الكهوف الثلاثة وقع الكشف لحد الآن عن ادوات تشهد بوجود صناعة رقيقة فى هذا الاقليم منذ اعرق العصور ففى ثنايا الطبقة الاولى مثلا من الكهف الاول احصيت 420 قطعة كمابلغ عددها 772 فى الطبقة الثانية بلغت نسبة الاواني فى مجموعها 129 .

وفى الكهف الثاني 228 قطعة و 1.303 فى الطبقتين توجد بينها آنية . اما فى الكهف الثالث فعدد القطع 301 منها 39 آنية . وتحتوي هذه القطع عن محكات ومثاقب من انواع مختلفة لثقب الاوراق والحديد والخشب مثل البريمة وادوات اخرى ذات شكل هندسي وقصع منحوتة واخرى مسلسة ، ووجدت آلة غريبة هي عبارة عن محك من نوع خاص .

وقد عثر الباحثون جنوبي اشقار على مغارة اطلقوا عليها مغارة الاصنام ، ووجدوا فيها مجموعة ثمينة من الادوات المنحوتة من العظام فى شكل مبازق ومثاقب وملاعق وانابيب ويوجد فى هذه المغارة جانب اطلق عليه اسم عربي هو المغارة العالية .

واذا لم يكن قد عثر بين هذه القطع على بقايا حلي ، فقد لوحظت فصوص من جير احمر منقوشة فى بعض الأواني ، كما وقع الكشف عن بقايا أوان خزفية بيضية الشكل او مسطحة الاسفل وهذه الوفرة والتنوع مما اتسمت به الصناعة فى اشقار منذ فجر التاريخ .

— * —

وقد لاحظ البحاثة الاسباني طراديل خلال حفرياته ان الخزف المكتشف يدل على شيئين اثنين ، هما : اقدمية استعمال الخزف بالمغرب من جهة ، وعلاقة المغرب باسبانيا منذ فجر التاريخ . لان الاواني الخزفية الموجودة باشقار تشبه ما وجد فى الكهوف الاسبانية الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط وكان الشكل الكروي هو الغالب في هذه القطع ، ولم يدخل الشكل البيضوي الا فيما بعد كما أن الصناع كانوا يوغلون فى طبخ الخزف وكذلك فى نقوشه . وقد بلغ عدد بقايا الاواني الخزفية خمسة آلاف غير منقوشة ، ولم توجد اية واحدة كاملة الهندام وبعضها عبارة عن قدر ومراجل حمراء منقوشة بالاظفار . ويتسم الخزف المصنوع فى اشقار بخصائص تميزه تمييزا كبيرا عن مصنوعات باقي اقاليم افريقيا الشمالية ، ووجدت نماذج منه فى مغارة الاصنام .

ولوحظ بين القطع المكتشفة فى الكهف الاول نحو المائة من القطع الرومانية ، مما يؤكد لنا ان ناحية اشقار كانت مطروقة من طرف الرومان وتوجد على بعد كيلومتر واحد جنوبي هذا المكان أوان خزفية من عهد الامبراطور الروماني اوجست من عائلة (سيفير) وقد عثر داخل مقبرة محادية لاحدى الصخور على قطعة من الزجاج وقطعتين من الخزف (ونفاتل) اي دبابيس من نحاس . ويرجع تاريخ هذه القطع الى القرن الاول قبل ميلاد المسيح .

وهكذا تدلنا الحفريات فى كهوف اشقار على ان هذا الاقليم عرف جميع انواع الادوات والآلات والاواني منذ العصر النيوليتي Néolithique الى عصر المعادن . وقل ما توجد هذه القطع فى المناجم المغربية الاخرى . أما نوع الخزف الشبيه بخزف الاسبان فالظاهر انه لم يصل الى سواحل الاطلنطي . والخزف الاحمر المكيف فى اشقار ينبيء بعهد الاواني الحمراء اللون التى نقلها الفينيقيون الى مدينة اللكوس (قرب العرائش) ومدينة الصويرة القديمة . وكل مكتشفات اشقار تؤكد لنا ان عناصر

واردة من العدوة الاخرى لمضيق جبل طارق قد استقرت فى هذه الناحية بفنونها وصنائعها كما جاءت منذ ثلاثين سنة بأدلة قاطعة على وجود علائق اقتصادية وثقافية عبر مضيق جبل طارق منذ العصر النيولوتي.

وانعدام المعادن فى هذه المغارات يؤكد من جهة اخرى ما زعمه الجيولوجيون من ان المغرب لم يعرف عصر البرونز .

ويظهر الفن فى عدة اشكال ويتجلى فى منشآت مختلفة فمن ادوات الطبخ الى الرموس والابنية والهياكل التى دخلتها مجموعة من القواعد فى الزخرف والزينة وفى ذلك دلالة على ما كان دائما للفن المعماري من الارتباط الوثيق بفن النحت والتصوير وصناعة الخزف والفنون الصناعية الاخرى .

الفن البربري وعناصره

وقد تاثر البرابرة منذ الفي عام بمدنيات مختلفة، استمدوا عناصرها من القرطاجنيين والرومان والوندال والبزانطيين ثم العرب ، الذين استمر احتكاكهم بالبربر ما ينيف عن الف عام . وبذلك استطاعوا ان يطبعوا بطابعهم انخاص عدة مظاهر من الحياة الريفية المغربية .

واذا كان الفن البربري هو ــ كما قال ريكار ــ فنا بدويا قديما ينفصل تماما عن الفن الحضري الاسلامي الاصيل فان المزيج الفني البربري لا يخلو من مقومات عربية بدوية . فالحياة التى يحياها البربر وليدة ملابسات محلية كثيرة : من جملتها عوامل الطقس والمقتضيات الجغرافية الاقليمية . ومعلوم ان انتجاع الكلأ يفرض حياة تنقلية تتلاءم مع الخيام التى تعتبر نواة للدسكرة (المدشر). ولكن بمجرد ما تسمح الظروف الطبيعية فى ناحية معينة بالحياة القارة، فان السكن الثابت يخلف السكن المتنقل كما تقوم القرية مكان الدوار بما تحتوي عليه من حصون ومخازن ومستودعات مشتركة (اغرم او اكادير) . وهكذا يتطور المظهر المعماري للسكنى ، من الشكل العتيق الذى كانت عليه فيما قبل التاريخ ــ وهو شكل فى منتهى البساطة ــ الى شكل دهليز او دار ذات سطح وهذا التسطيح هو النموذج التقليدي للسكن المغربي بالرغم عن تنوع التصميمات المستوحاة من اللوازم المحلية .

ومن الامثلة الحية تيغرمت الاطلس المتوسط ، التى هي عبارة عن قلعة مربعة ذات حصون تحتوي كل زاوية من زواياها الاربع على برج متصل بغرفة فيها درج توصل الى الطابق الارضي . اما الحصون القائمة بالاركان فانها تستغل كاهراء ومخازن للحبوب والساحة قد غطي جزء منها فقط فى حين ان الطابق الثاني خال من البيوت . اما الاغرم فهو شبيه بالتغرم الا انه يفوقه من حيث عدد المخازن المواجهة للبناء. على ان كلا منهما قد بني على مرتفع من الارض ليأتي بالفائدة المرجوة منه كمخزن للقرية ومركز للتجمعات فى حالة هجوم وقد كانت قلاع كبار قواد الاطلس تقوم بنفس الدور . غير انها اشتملت بالاضافة الى ذلك على سكنى للرئيس يتناسق فيها الفن المعماري الحضري بالصور والتنسيقات الفنية الريفية (رسوم هندسية عجيبة الشكل واعمدة مزخرفة ونقش وترصيع) .

اما هندسة البناء البربرية فقد لاحظ طيراس انها تظهر من حيث قوالبها الفنية متصلة بهندسة بناء واحات مصر الفرعونية ، وتختلف الفنون البربرية عن الفنون الاسلامية المتقالمة بالمغرب العربي بكونها فنونا عائلية ، وفى اغلب الاحيان نسوية الا أن هذه النظرية (الفرعونية) تتنافى مع ما يلاحظ من تجانس ومظاهر وحدة بين التصميمات المعمارية فى اليمن والمغرب لاسيما وان شعبا شتى من البرابرة قحطانيون حسب روايات راجحة .

الاثر الاغريقي الروماني

وقد تاثر المغرب لاسيما فى عصور ما قبل الاسلام بالاسلوب الاغريقي الروماني وما يمتاز به من اقواس واعمدة وحمامات وقناطر وقنوات ومخازن للماء وسقايات ، وظل ذلك بارزا فى مختلف اطواره ومراحله التاريخية ولقد كانت الدار الرومانية نفسها حتى فى اقاليم المغرب ، كثيرة الشبه بالدار الاغريقية حيث تشتمل كما نرى الى الآن على بناء مربع متصل بالهواء الطلق تحيط به اروقة وله ممر طويل يصله بالشارع . اما الحجرات فهي تقع فى الجهات الاربع للبناء .

ومن حيث هندسة البناء الدينية يظهر ان الفن المسيحي لم يترك اثرا يذكر فى البلاد حيث ان المغرب نقل عن المشرق طريقته فى الزخرفة التى تزدان بها مساجده ومختلف مؤسساته الدينية . وهي الطريقة الاسلامية التى اثارت اعجاب مهندسي الكنائس الرومانية فى فرنسا ، وظهرت آثارها فيما شيدوه بها من معابد خلال القرون الوسطى .

نعم يقال ان ذلك الاشعاع الفني الاسلامي لم تتعد آثاره نطاق الجزئيات (ريكار) ولكن كم يكون فن القرون الوسطى المسيحي جافا وباردا كما يقول الاستاذ ريكار نفسه ــ لو انه خلا من هذه الجزئيات ومن روعة الوانها وجمال خطوطها .

ولكن ماذا بقي بالمغرب من هذا الفن القديم ؟

ان الحفريات التى انجزها علماء الآثار بموريطانيا الطنجية ، اذا كانت لحد الآن لم تلق الا بعض الانوار على حياة المغرب القديم العقلية والدينية ، فانها على العكس من ذلك تفيدنا فوائد جمة حول حياته الفنية ففى قصر فرعون (وليلي) مثلا نشاهد قوس نصر من الحجارة فى اسلوب بديع بالرغم عن جفاف وتعقد معظم تشكيلاته. ومثل ذلك يقال عن اسواق وساحات « بناسة » وشالة التى شيدت من الحجر المنجور المتجانس فى اتقان غريب ، ونفس الاسلوب يلمس بوجه عام فى مختلف الاسس والعتبات والمساكن الرومانية . اما قلب الجدران فهو من الحجر غير المنحوت ومن الآجر والطابية . ولقد كانت الدور فى معظمها متعددةالطبقات، وكانت مغطاة باغمية (سطوح) من تراب وكلس ، واحيانا بالقرميد ، وكانت الارض مرصعة بالحجارة الا فى الحجرات حيث كانت مبلطة بالكلس والتراب او بالفسيفساء المزدوج الالوان من صنع الفنانين المحليين .

ويلاحظ فيمابعد العصر الروماني ــ حتى ايامنا هذه ــ ان اسلوب هندسة البناء لم يتغير كثيرا . وانما من التطور الطبيعي بصفة جوهرية تفاصيل الزخرف حيث استعيض بالرسم الهندسي مثلا والصور الزهرية عن اشكال الحيوانات او نحت الصور البشرية على النقود. ولكن اصالة الفن الروماني بالمغرب بقيت بارزة بوجه خاص فى فن نحت تماثيل المرمر والبرونز . وبعد الفتح العربي استمر التأثير الروماني قويا فى الجهاز المادي للحضارة من ازياء وحلى وبنايات وجامعات وحمامات .

فهذا النموذج الروماني الاصيل قد تسربت اليه عناصر جديدة فى شكل تضاريس وزخارف عربية تستمد هندامها من العوائد والاعراف الجوهرية . ولكن الاسس تبقى من خلال ذلك ثابتة الدعائم . وهكذا نرى ان فنون هندسة البناء وصناعة الاواني فى المغرب تتبلور اشكالها ولا تزداد بعد الف سنة الا دقة ورواء بفضل احتكاكها بحضارة المدن . كما نرى معجم البربر الفني قد اضيفت اليه ثروة من اسماء المصنوعات الجديدة التى قد تكون احيانا فى منتهى الجودة والاتقان . مثل الصناديق الخشبية المنقوشة او المصبوغة وادوات زينة الابواب والاقفال والخناجر ، والاغماد ، واوعية البارود ، ومقابض البندقيات والمسدسات المفضضة المرصعة بالعاج والحلي المتنوع مثل الخواتم والاخراص والعقود والتيجان والاسورة والخلاخل .

ويجتهد الجوهري فى نقش المعادن النفيسة مبتكرا تحفا تدل على ملكة فنية قوية .

وفى المراكز الريفية الصغيرة نفسها تجد الخزفي يبدع فى صناعة الاواني الخزفية والصحون والمجامير وتشكيلها باشكال هندسية رائعة .

اما صناعة الجلد فتحترفها هيئة خاصة تتفرع حسب الاختصاص الى عدة شعب كلها تتبارى فى ابراز ما لها من الذوق الفني الرفيع سواء فى ذلك صانع الاحذية الصغيرة وصانع المحفظات والخرجة والتخوت والطنافس او المفضض والمذهب ، او النقاش الذى يرصع المنتجات الجلدية بالخيوط الفضية والذهبية او بالحرير او العصائب الجلدية الرقيقة المختلفة الالوان .

وهكذا نرى المغرب عبارة عن بوتقة انصهر فيها الفن البربري والفن الاغريقي الروماني وازدادت على مر الايام ثراء بفضل ما اضافه اليها فن الشرق العربي .

الفن بعد الفتح الإسلامي

اول مملكة عربية تركزت فى المغرب هي مملكة نكور الواقعة بالريف على شاطىء البحر الابيض المتوسط وذلك فى عصر الوليد الاموي بامارة صالح ابن منصور الحميري (6) .

وقد غزا الاسلام منذ العقود الاولى للفتح قلوب صنهاجة وغمارة فاتجهت الجهود الى بناء رباط فى عهد الامير سعيد بن صالح يحتوي على مسجد بمرافقه يستوحي تصميمه الهندسي من جامع الاسكندرية وكان الاسلوب المعماري بسيطا تبعا للفن الشرقي الاسلامي الذى كان لا يزال اذ ذاك فى فجر انبثاقه فجامع عمرو بن العاص (عامل مصر) مثلا خال من كل زخرفة وتنميق كالقربصة والنقشين الخشبي والمرمري وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التى امتاز بها الفن العربي فى العصور التالية .

ومن هذا الطراز مسجد اغمات غيلانة الذى اسس عام 85 هجرية والذى يظهر انه اول مسجد بناه المسلمون بالمغرب بعد ان حولت المعابد التى بناها المشركون الى مساجد وجعلت المنابر فى مساجد الجماعات (7) وبدات افريقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق الاسلامي .

وقد لاحظ الكاتب الفرنسي جورج مارسي وهو من كبار مؤرخي الفن الاسلامي – ان بلاد البربر امست منذ القرن السابع الميلادي عبارة عن مرحلة فى الطريق الكبرى التى تصل الهند بجبل البرانس باسبانيا والتى يطرقها علاوة على رسل الخلفاء وسفرائهم ثلة من الحجاج والطلبة والفنانين والتجار (8) فلا يسعنا والحالة هذه ان نستهين بآثار عهد الاسلام المستديمة والمنبعثة بواسطة هذه المسالك ومن ابرز مظاهر هذا الاشعاع الفني انبثاق مساجد وجوامع تتسم بطابع عربي اصيل وتوجد خاصة بافريقية العناصر الاولية للفن الاسلامي فمدينة القيروان هي اول حاضرة اسسها العرب بعد فتح عقبة بن نافع الفهري وقد برزت فى القرن الثاني الهجري اهمية هذه المدينة التى اصبحت عاصمة المغرب الاسلامي فى عهد عبيد الله بن الحبحاب (باني الجامع ودار الصناعة بتونس عام 116 هـ والذى استعمل على طنجة العامل عمر بن عبد الله المرادي وتم ذلك فى اواخر عهد الامويين واوائل العصر العباسي حيث بدأ الاسلام يتغلغل فى الفيافي الافريقية وقد احتفظ المغرب مع ذلك بسمة خاصة نظرا لكون العباسيين لم يملكوا ما وراء الزاب (من بلاد المغرب وتلمسان وانظارها فوليها محمد بن سليمان الحسني وفاس وانظارها كان فيها شيعة ثم آل ملكها الى ادريس) ولم تستمر الوحدة السياسية بين المغرب والامويين سوى عقود من السنين عندما ولى هشام بن عبد المالك عبيد الله بن الحبحاب مصر وافريقيا والاندلس فكان له من العرائش الى طنجة الى سوس الاقصى الى الاندلس وما بين ذلك (9) .

وفى نفس الوقت الذى تأسست دولة الاغالبة وبني رستم فى كل من افريقية والمغرب الاوسط تركز الادارسة بالمغرب الاقصى حيث التفتت حولهم القبائل الكبرى التى تولدت عنها دول خلال العصور التالية (مثل صنهاجة ، والمصامدة ، وزناتة ، ومكناسة الخ) .

---

(6) صالح بن منصور الحميري افتتح اقليم نكور زمن الوليد بن عبد الملك ونزل تمسمان وعلى يديه اسلم بربرها من صنهاجة وغمارة ، وسعيد بن ادريس هو الذى بنى مدينة نكور (المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب للبكري الجزائر 1911 م ص – 91 – 92 .

(7) المغرب لابن عذارى ج 1 ص 37

(8) مقدمة كتاب الفن الاسلامي .

(9) البيان المغرب فى اخبار المغرب لابن عذارى المراكشي – بيروت عام 1950 ج 1 ص 37 ويذكر ابن بابا مؤرخ السودان انه عندما غادر عقبة بن نافع بلاد لمطة كان بعاصمة غانة اثنا عشر مسجدا (الاسلام فى افريقيا الغربية بقلم دو شاطو ليي – باريس 1899 ص 52) .

ويمكن ان تعتبر مدينة فاس اول مركز عربي تفتق فى البلاد المغربية واصبح بعد ذلك ـ حسب كوتيي ـ مظهر اعجاز فى ميدان التكيف بالطابع الشرقي . ذلك ان الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الاموي فى كل من الشرق الادنى والمغرب العربي بفضل مرونة حساسية العرب ومداركهم الابداعية. فهناك عوامل حدت العرب فى الاندلس والمغرب وكذلك بمصر الى الاستيحاء فى زخارفهم من معطيات الهندسة وهذه العوامل هي اهمالهم للاشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهم فى دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم واذواقهم .

وقد تبلور هذا الاتجاه مع مرور الاعصار وتهذبت اطرافه ورقت حواشيه وتنمقت معالمه .

فظهور العباسيين بالشرق قد حدا فلول الامويين الى تأسيس مملكة اتخذوا لها قرطبة حاضرة ما لبثت ان اصبحت مهدا لمدنية جديدة ترعرعت مجاليها الخصبة طوال قرنين ونصف قرن مسفرة عن فترة زاهرة فى تاريخ الفن الاسلامي .

فبالرغم عن احتكاك القبائل العربية المستقرة بالاندلس واستفحال حركة التمرد بانضمام البرابرة وتدخل المسيحيين لم يتوقف ازدهار الفنون وقد نتج عن حركة الربضيين الثورية التى شبت فى ربض قرطبة بعد تأسيس فاس ـ هجرة عائلات اندلسية فى مختلف الطبقات الى خارج الاندلس وقد استفادت حاضرة المغرب الادريسية من الافواج القرطبية التى توافدت للاستيطان بها (10) فكان لهؤلاء اثرهم فى توجيه الحركة الفكرية والمآثر الفنية الا ان الاستقرار السياسي الذى استتب فى عهد الناصر والحكم الثاني قد فتح المجال فى وجه الادباء والشعراء والفنانين فاقيمت دعائم نهضة فنية جديدة تجلت معالمها الرائعة فى البنايات التى تنافست العناصر المختلفة من سكان الاندلس فى وضع اسسها مما ادى الى تأصيل نواة وصفت فيما بعد بالفن الاندلسي المغربي .

فهذه المعطيات الاولية للفن الاندلسي التى تجمعت فى روائع قرطبة كالجامع الكبير والقصر ومدينتي الزهراء والزاهرة قد انضافت اليها عناصر فتية مقتبسة من مدارس طليطلة واشبيلية (11) وغرناطة حيث توجد مثلا فى قصر الحمراء قوالب بسيطة من الجبس ما زالت تقالب الحدثان الى الآن (12) .

وفى هذا المزيج الفني برز العنصر الشرقي فى الآثار الشامية والفارسية والبزنطية فكما سبق للوليد الاموي ان استعان بامبراطور الاستانة لاستقدام فنانين فى الفسيفساء من اجل ترخيم جوامع دمشق والمدينة والقدس فكذلك اتجه الحكم نحو الامبراطور الروماني للحصول على خبراء فى هذا الجانب من الفن البزنطي (13) وقد اكتسب العمال الاندلسيون مهارة فى الابتكار تجاوزوا بها معلميهم (14)

وقد كانت لروح التبادل التى سادت بين الشرق والغرب بعد قيام الدولة الاموية فى الاندلس ـ اثرها العميق فى طبع ابسط المعالم فى الحضارة المغربية الاندلسية. اذ لا يعزب عن الاذهان ان زرياب وهو من ابرع مغني الشرق قد هاجر الى قرطبة فاصبح ـ كما يلاحظ دوزي ـ مشرع اسبانيا العربية حيث حقق ثورة جذرية فى الازياء فقد كان الاندلسيون يطيلون شعرهم مفصولا على جباههم ويستعملون الاواني الذهبية والفضية واخونة الكتان فى حين

(10) يقال بأن ثمانية آلاف عائلة قرطبية وردت على فاس فوجدت ثلاثمائة عائلة قيروانية قد سبقتها الى عدوة القيروان وهذا الرقم الذى اعطاه دوزي فى تاريخ مسلمي الاندلس (ط 1932 ج 1 ص 301) يعارض ما اكده طيراس فى تاريخه وهو ثمانمائة عائلة ويظهر ان هذا هو الصواب لان البون بين عدد افراد الطائفتين القيروانية والاندلسية لم يكن شاسعا الى هذا الحد .

(11) كانت اشبيلية تعتبر مركزا للعلم والحضارة الرومانية فى عهد القوط وهي اهم مدينة اسبانية (تاريخ مسلمي الاندلس ج 2 ص 39) .

(12) حضارة العرب (كوستاف لوبون) الطبعة الفرنسية ص 300 .

(13) كتاب الفن الاسلامي لمارسي ج 1 ص 224 .

(14) البيان المغرب طبعة بيروت 1950 ج 2 ص 354 .

اصبح الناس يقلدون زرياب في قطع الشعر مستديرا والاكل في آواني الزجاج وعلى اخونة من الجند (15) كل هذا اضفى على الحضارة الاندلسية طابعا خاصا من الروعة والرواء وازدهرت في عهد عبد الرحمن الناصر جميع مرافق المدنية من فلاحة وصناعة وتجارة وفنون وعلوم (16) مما ساعد حضارة اسبانيا المسلمة على احتلال المكانة الاولى بالنسبة لدول الغرب (17) ويشهد كثير من مؤرخي الفكر بأوربا ان القرن العاشر الميلادي وهو عصر النهضة الناصرية — يعتبر من ابهى وازهر عصور اسبانيا العربية سواء في الفنون أم المؤسسات العلمية (18) والناصر الاموي هذا هو الذي وسع جامع القرويين بعد بنائه بقرن مضفيا بصورة رسمية على مدينة فاس اول طابع فني اندلسي وقد ازدهرت هذه الحاضرة الى ان اصبحت بعد ذلك بقليل منافسة لدار السلام بغداد الرشيدية (19) .

وقد كان لفاس اثرها القوي حتى في افريقيا وبذلك اسس مهد علماء الاسلام بافريقيا تابعا لمدرسة برابرة الغرب الاسلامي (20) ويرجع فضل هذه النهضة الى المولى ادريس الثاني الذي امد حاضرة العلم بأولى مؤسساتها فالفن بالمغرب وفي غيره من الدول الاسلامية هو من متبنيات الامراء والملوك الذين يحمون الادب والفنون الجميلة ويشجعون الكتاب والفنانين متحملين بذلك تكاليف مادية باهظة ففي الاندلس مثلا بلغت مصاريف بناء القصور وزخرفتها في عهد الملوك الامويين الاول ثلث الميزانية العامة للدولة (21) . فقد كان المهندسون المعماريون والنحاتون والرسامون يشتغلون ترضية لحاجيات الامير ونوازعه السياسية ونقعا لغلته الدينية وتلبية لاتجاهاته الزخرفية وعندما كانت الاضطرابات تستتب وتحتدم كان الفن يتوقف وينتكس لان ازدهاره منوط بثورة الدولة وشخصية الامير .

كل ذلك جعل تطور الفنون معلقا على الظروف والملابسات التاريخية ومدى ثراء البلاد في الحقل المادي وقد استمرت هذه التقاليد الفنية بالمغرب خلال العصور التالية وحتى عقب انحلال المملكة الادريسية في القرن الثالث الهجري ظل كبار الامراء يؤسسون من الشمال الى الجنوب حواضر صغرى تنافس حاضرة فاس في اقتباس مظاهر الحضارة الاسلامية ونشر معالمها الرائعة .

فقد كانت مدينة البصرة (22) مثلا في ذلك العصر مركزا نشيطا لانتاج الكتان وفي عهد بني عامر وبني زيري (القرن الرابع) تسربت عناصر جديدة من حضارة الاندلس وفنونها الى المغرب حيث تغلغلت في جبل الاطلس فبلغت ناحية فازاز على يد قرطبيين من مهاجري الربض وكان جنوب المغرب آنذاك زاهرا بالمدن الآهلة كنفيس مدينة الحدائق واغمات عاصمة الادارسة في الجنوب وايغلي وبتاروانت وتامدلت وماسة وواحات نول

---

(15) تاريخ دوزي — الطبعة الجديدة التي اصدرها ليفي بروفنصال عام 1932 ج 1 ص 312 .

(16) ابن حوقل — طبعة كوج 2 ص 77

(17) طيراس — تاريخ المغرب ج 1 ص 230 .

(18) تاريخ الطب العربي — لوكلير عام 1876 ج 2 ص 351

(19) كوستاف لوبون — حضارة العرب ص 263 (الطبعة الفرنسية)

(20) الفن الاسلامي — جورج مارسي ج 2 ص 469

(21) نفح الطيب ج 1 ص 179 .

(22) تعرف ببصرة الكتان وبالحمراء لانها حمراء التراب وكان سورها مبنيا بالحجارة والطوب ولها عشرة ابواب وللجامع سبع بلاطات ولها حمامات .. ونساؤها مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب اجمل منهن .. واسست في الوقت الذي اسست فيه ازيلا او قريبا منه (البيان المغرب ج 1 ص 133 — 134) وهادم البصرة هو ابو الفتوح صاحب افريقية من قبل العزيز بالله عام 368 هـ وكانت في البصرة عمارة عظيمة بالاندلس والبربر (ص 330) .

لمطة وايفني (23) ويظهر ان الحياة الحضرية كان لا بأس بازدهارها آنذاك نظرا لوفرة الحواضر التى اندرس معظمها وقد ترك لنا كل من البكري والادريسي اسماء مجموعة من المدن اندثرت الآن معالمها وهي مجهولة فى الخرائط وقد هدم البرغواطي يونس بن الياس وحده 387 مدينة (24) .

المرابطون والفن

ان احتكاك العناصر السلالية فى الاندلس قد احتدت وعجل ذلك بسقوط الخلافة الاموية مما ادى الى قيام نحو العشرين من ملوك الطوائف ابرزهم المعتمد بن عباد امير اشبيلية الذى اتسم بلاطه بروعة خلابة وكان مجمعا للعلماء والادباء ورجال الفن غير ان خطر الزحف الاسباني بدا يلوح فى الافق فى الوقت الذي احرزه على المسيحية راى من الواجب لا استئصالا الخطب وادلهم وامست ممالك الغرب الاسلامي عرضة للغزو الداهم فاستنجد مسلمو الاندلس بزعيم الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين وقد لبى هذا الامير الصحراوي نداء الواجب بصفته منافحا عن الدين والحنيفية السمحة فاجتاز الى الاندلس وبعد النصر الذى احرزه على المسيحية راى من الواجب استئصالا للخلاف المستديم بين الامراء المتنازعين على الملك ـ العمل على توحيد الاندلس تحت راية الاسلام واستعادة مجده بتنحية بعض قادته امثال عبد الله بن بلقين وابن عباد الذى نقل الى اغمات حيث قضى بقية حياته وهذه المدينة التى كانت فى البداية قاعدة ملك المرابطين والتى كان يدبغ بها جلود تفوق جودة عملها جلود الدنيا (المعجم) ما لبثت ان تقاعست امام الحاضرة الجديدة (مراكش) (25) .

ومنذ ذلك العصر اصبحت الاندلس مقاطعة مرابطية عرف فيها الفن خلال جيلين مظهرا جديدا من الروعة والازدهار .

وقد لاحظ جورج مارسي (26) ان المرابطين الذين ورثوا ملك الامويين وحكموا العدوتين كانوا صلة وصل بين اسبانيا والبربر حيث نما التبادل بين شقي مملكتهم واذا كانت اسبانيا اذ ذاك قد خضعت سياسيا للمغرب فان المغرب كان اقليما فنيا اندلسيا حيث استقدم يوسف صناعا قرطبيين لبناء مؤسسات بفاس (27) بينما استفاد ابنه علي من مواهب مهندسي العدوة ولاقامة قنطرة تنسيفت فى مدخل حاضرة مراكش وبفضل هؤلاء الغزاة الصحراويين فرض الفن الاندلسي روائعه على المغرب وقد راى المؤرخ دوزي فى الغزو المرابطي

---

(23) البرابرة والمخازن ـ روبير مونطاني ص 59 .
ومن هذه المدن مجكسة ودنيل (قرب سبتة) وصدينة وتيقيساس وكرت وماسنة وسداك وحجر النسر ومدينة الزيتون ولكلي وتافرجنيت وترنانة وجراوة (المسالك والممالك للبكري) وليكسيس وصفروى وتاكرارت (مكناسة) وتاورة وكرانطة وتشمش (قرب طنجة) وباب اقلام (قرب البصرة) وهنين (نزهة المشتاق فى احتراق الآفاق للشريف الادريسي) .

(24) المسالك للبكري ص 136 .
وتهمنا هذه الحواضر وتلك المؤسسات من عدة وجوه لان الفن فى كل قطر مظهر لامجاده وصورة حية لروائعه فما اثر من الآثار العمرانية الا ويمكن ان تنطوي زخارفه ونقوشه على اسرار من شأنها ان تلقي يوما ما ضوءا جديدا على المجالات التى ظلت غامضة فى تاريخ البلاد فالدراسات الاثرية تكون احيانا اضمن وسيلة للتحري والتصحيح وهي عنصر جوهري فى كل حضارة .

(25) كانت تسمى مروكش وقد استعملت هذه اللفظة دون غيرها ايام المرابطين وانتقلت الى الاسبانية هكذا (مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بني زيري ـ نشره ليفي برفنصال 1955 ج 1 ص 125) .

(26) الفن الاسلامي ج 1 ص 301 .

(27) زهرة الآس طبعة الجزائر سنة 1922 ج 1 ص 78 ـ الجذوة)

للاندلس مثار ثورة عارمة فأكد أن الوحشية قامت آنذاك مقام الحضارة والتطير مقام التعقل وطفى التعصب على التسامح (28) غير ان المؤرخ الاسباني قد تراجع عن هذهالنظرية ولاحظ مارسيان المرابطين حققوا فترة انتقالية مشرفة بين ملوك الطوائف والموحدين. (29) واكد المؤرخ الفرنسي هنري طيراس (30) انه اذا نظرنا الى المرابطين من خلال عملهم الافريقي فانهم يتجلون كدولة خدمت الحضارة الاندلسية واحسنت اليها ، ثم حمل على دوزي الذى زعم ان المرابطين استأصلوا اجود ما فى حضارة الاندلس بدعوى الدفاع عن حوزة الاسلام فى العدوة هذا ولم يجد المستشرقون الاسبان عناء فى الدلالة على ما اضفاه المرابطون من روعة وبهاء على المدنية الاسبانية وقد اندرست او تغيرت اعلام مؤسسات ملوك الطوائف بالاندلس او المرابطين بالمغرب فقصر ابن عباد فى اشبيلية قد ادخلت عليه تغييرات عميقة من طرف منك قشتالة بيير لوكورويل (1350 – 1360) بحيث فقد كثيرا من عناصره العربية وردهة السفراء هي التى تذكرنا وحدها بالفن الاسباني المغربي فى القرن الخامس بينما مرافق القصر الاخرى مستوحاة من النهضة الاسبانية (31).

وقد اشار صاحب الاستبصار الى مآثر مرابطية لم يبق لها اثر وهي « دار الامة » التى اسسها ابن تاشفين بمراكش « ودار الحجر » التى اقامها ولده علي ودمرها عبد المومن لبناء جامع الكتبية مكانها ويرجع الى هذا العصر كذلك القصر القديم فى تكرارت (تلمسان المرابطية)

اما الحمامات فانها على صورة المستحمات الرومانية التى ما زالت منها بقايا فى شالة وتتجلى اهمية هذه البنايات فى وفرتها بالمراكز الكبرى وحتى الصغرى منها فمدينة البصرة التى هدمها ابو الفتوح صاحب افريقيا من قبل العزيز بالله عام 368 هـ يوجد بها حمامان اثنان وقد احتوت جراوة التى اسسها ابو العيش عيسى بن ادريس عام 257 هـ على خمسة حمامات الى جانب القصبة المانعة والجامع ذي البلاطات الخمسة (32) اما قرطبة فقد ضمت اسوارها ثلاثمائة حمام تتخلل ثلاثة آلاف مسجد و 28 ربضا منها الزاهرة والزهرة (113.000 دار) ووجد بفاس ايام الناصر الموحدي 93 حماما بينما لم يكن بها سوى العشرين قبل ذلك ويظهر ان القاهرة اشتملت فى القرن السابع على 80 حماما (33) بينما كان فى الفسطاط فى نفس الوقت الف حمام ، اما فى بغداد فقد تحدث ابن جبير عن الفين وابن الخطيب البغدادي عن ستين الفا .

ولا اعرف كتابا افرد فى تاريخ او وصف حمامات المغرب بينما الفت فى حمامات دمشق كتب مثل «عدة الملمات فى تعداد الحمامات» ليوسف بن عبد الهادي (من رجال القرن التاسع واوائل العاشر) .

اما من الوجهة المعمارية فالظاهر ان انماط البناء تبلورت فى الشرق والغرب منذ القرن الثامن الميلادي كما لاحظ ذلك مارسي ففى الاسلوب الاندلسي توجد قاعة ثانية هي قاعة الاستحمام الحقيقية مجهزة بجفان من مرمر وانابيب مركوزة فى عرض الجدران يجري فيها الماء المسخن فى مرجل نحاسي من العيار الكبير وتنبعث من هذه الانابيب حرارة مرتفعة ، اما فى حمامات المغرب فالبرمة (وهي قدر كبرى من حجر) تقع فى الردهة الثالثة التى هي مصب الحرارة وهي موازية لقاعة ثانية اقل حرارة وتليها غرفة ثالثة دافئة وبذلك يتطور المغتسل بنوع من التدرج يطابق المقتضيات الصحية اما الساحة الخارجية وهي عبارة عن وسط الدار الداخلي فتعلوها قبة ثمانية وتتوسط بساطها المبلط بالزليجي فسقية من مرمر او فسيفساء وبجوانبها غرف للراحة والاستجمام .

---

(28) ابحاث حول تاريخ فرنسا السياسي والادبي – ص 27 – الطبعة الثانية ج 1 ص 343 .
(29) كتاب الفن الاسلامي ج 1 ص 297 الى 301 .
(30) تاريخ المغرب ج 1 ص 259 .
(31) كتاب الفن ج 1 ص 338 .
(32) البيان المغرب ج 1 ص 133 .
(33) راجع القرطاس ج 1 ص 10 حيث تحدث المؤلف عن مدرسة واجاج ابن زلو ويظهر ان هذه اول مدرسة من هذا النوع فى البادية المغربية .

وقد اقام المرابطون عددا كبيرا من المؤسسات الدينية فى المغرب الاوسط (جوامع جزائر بني مزغنة وندرومة وتلمسان (34) وكذلك فى المغرب (مدرسة الصابرين بفاس وجامع ابن تاشفين بمراكش (35) وتدل الحفريات الاثرية الاخيرة على ان فى الامكان تحديد موقع هذا المسجد العتيق فى وسط المدينة وقد كشفت مصلحة الفنون الجميلة والآثار الاسلامية التابعة لادارة التعليم العالي عن قبة مرابطية هي قبة البردعيين قرب جامع ابن يوسف .

اما فى فاس فان جامع القرويين المؤسس عام 245 هـ قد وسعت جنباته فى عهد المرابطين على الشكل الذى ما زال عليه الى الآن كما يتجلى ذلك من الوصف الوارد فى القرطاس وزهرة الآس وقد بني جامع القرويين طبقا لتصميم اصيل فصحونه موازية للقبلة على غرار مسجد الشرفاء الذى بناه المولى ادريس بفاس وكذلك جامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق .

اما التصميمات المعمارية العسكرية فقد استمد الصنهاجيون جل أساليبها من بقايا العناصر البيزنطية والرومانية والقرطاجنية فمنذ القرون الاولى للفتح الاسلامي بالمغرب العربي والمدن تحاط بأسوار وكذلك الامر فى كثير من الحواضر العربية بالشرق والمواد الاساسية للبناء كانت تتشكل فى القرن الثالث الهجري فن الآجر والجبص والطوب والطوابي فسور جراوة (36) مثلا بني بالطوب عام 257 هـ وكذلك رقادة بافريقيا عام 294 والبصرة المهدمة عام 368 هـ هذا بينما استعمل البناءون الجص والمرمر والآجر فى جامع القرويين لدى تجديد بنائه عام 252 هـ على يد الاندلسي محمد بن حمدون (37) وكانت كذلك لمدينة داول قرب مدينة اصيلا اسوار امر بهدمها اواخر القرن الرابع محمد بن قاسم من قبل المستنصر بالله الاموي (38) .

وقد تزايد عدد الابراج والاسوار المحيطة بالمدن والحواضر خلال القرن الرابع على اثر انحلال السلطة المركزية بقيادة ملوك الطوائف بالاندلس وزناتة والادارسة والبرغواطيين بالمغرب الى حد انعدم معه تقريبا وجود مدن شاغرة خالية من الاسوار بل كانت توجد قلاع محصنة داخل بعض المدن فكانت مثلا فى مدينة البيرة (39) بالاندلس مراكز يتخذ فيها الرجل بازاء داره مسجدا وحماما فرارا من جاره وقد بنى المرابطون قلاعا للتحصن من هجمات خصومهم والتوفر فى عقر الاطلس على مآو دفاعية عند الاقتضاء ويظهر ان يوسف ابن تاشفين رغب اول الامر فى ابراز قوته العسكرية بالاستغناء عن الاسوار فمدينة مراكش مثلا لم تجهر بالاسوار الا فى ايام علي بن يوسف بايعاز من الفيلسوف الفقيه ابن رشد وقد ذهب ابن تاشفين ابعد من ذلك عندما دمر اسوار مدينتي صدينة ثم فاس عام 462 هـ (40) عنى ان الامير المرابطي شعر بالحاجة الملحة الى بناء حصن فى قلب مراكش لحماية أمواله وعتاده وقد أسفرت الحفريات التى قامت بها مصلحة الآثار الاسلامية فى المكان الذى بني فيه جامع الكتبية الاول عن جانبين اثنين لهذا الحصن المرابطي وهنالك قلاع اخرى يرجع عهدها الى العصر المرابطي مثل قلعة بني تودة بفاس هذا ولم يحس المرابطون الصحراويون باديء ذي بدء بالحاجة الى تزويد المغرب بمؤسسات حضرية ذات مصلحة عامة فمشكلة المياه مثلا رغم اهميتها

---

(34) هذان الجامعان الاخيران هما نهاية فى البساطة الخلابة وهما خاليان من كل كتابة تنم عن مؤسسهما غير ان تأسيسهما يرجع فى الغالب الى ابن تاشفين (الهندسة المعمارية الاسلامية فى المغرب مارسي ص 191) .

(35) ورد فى معجم ياقوت (ج 6 ص 384) أن عدد الحمامات 180

(36) تقع جراوة حسب الادريسي قرب مليلية على مسافة ستة اميال من البحر (مختصر النزهة ص 54)

(37) وبنى أسواره ابن الاشعث عام 146 هـ ـ البيان لابن عذارى ج 1 ص 85 .

(38) البيان ج 2 ص 366 .

(39) التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري فى غرناطة للامير عبد الله ابن بلقين ـ نشره ليفي بروفنصال عام 1955 هـ .

(40) القرطاس ج 2 ص 41 ـ 42 وقد لاحظ ابن ابي زرع ايضا ان اسوار فاس حطمت من جديد فى عهد عبد المومن ثم جدد بناءها حفيده المنصور (ص 137)

قد حاولوا حلها بالوسائل التي كان يستعملها رجال الصحراء ولا يزالون ، فمن ذلك الخطارات التي مدت في باطن الارض لتجهيز مراكش بالماء وهذه الانابيب الواسعة شبيهة بالفكارات الصحراوية غير ان الاساليب الاندلسية الجديدة حدت علي بن يوسف الى الاستعانة بالفنيين الاندلسيين لتجديد طريقة جلب الماء فقد حفرت آبار نقلت مياهها بأسلوب ميكانيكي عجيب الى حدائق المسرة (المنارة) .

وهكذا فان المرابطين الذين قاموا بدور الوسيط بين اسبانيا وافريقيا التجأوا في آن واحد كما يلاحظ مارسي الى الفنيين الصحراويين والمهندسين الاندلسيين وقد بنيت قنطرة على نهر تنسيفت بمدخل مدينة مراكش بفضل جهود مهندسين استقدمهم الامير من العدوة وقد جرفت المياه هذه القنطرة خلال فيضان فأعيد بناؤها في عهد الامير الثاني .

وقد اكد المؤرخ الفرنسي طيراس (41) لدى حديثه عن الفن المرابطي ان علي بن تاشفين فاق والده بكثير في المؤسسات المعمارية مع ان يوسف نفسه كان من كبار البناة والمؤسسين وقد اندثرت اعلام جميع ما اقامه من قصور ومساجد في مراكش باستثناء قبة البردعيين (قرب جامع بن يوسف) ومسجد تلمسان (عدا منارته) ومعظم اروقة جامع القرويين الزاخر بروائع الفن الاندلسي المقتبس طبق الاصل من الفن الاندلسي بما كان ينطوي عليه في القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة زخرف ومع ذلك فان اسهام المرابطين في الفن كان مهما لا يخلو من تجديد فالفنان لا يمكن ان يستسيغ ويقتبس الا ما تمكن تقريبا من الكشف عنه (42) ولنا على ذلك دليل قوي في النفوذ الشامخ الذي بسطه المرابطون في الاندلس وافريقيا وذلك في العمل البناء الذي حققوه في هذا الجزء من المغرب الاسلامي وقد لاحظ كودار (43) عن حق ان اقامة المرابطين لصروح اكبر امبراطورية اسست في العالم حيث امتدت من الاندلس الى جزر الباليار الى نهر النيل النيجري لتنم لدى الفاتح المرابطي عن تفتح مدارك قوية .

تطور الفن في عهد الموحدين

بعد انهيار الدولة المرابطية اعتلى اريكة العرش زعيم المصامدة الموحدين المهدي بن تومرت المنحدر من الاطلس الكبير ثم خلفه عبد المومن بن علي الذي وصفه بعض المؤرخين الاجانب بانه اعظم شخصية بدون منازع طوال القرون الوسطى البربرية اذ هو قائد حربي نظامي حقق للمرة الاولى في تاريخ افريقيا الشمالية اعجوبة باستلام ازمة الحكم في مجموع الاقطار الممتدة من المحيط الاطلنطيقي الى طرابلس الغرب ، وقد اعترف المؤرخ كزيل ايضا بان الموحدين بسطوا نفوذهم على مجموع بلاد البربر (44) .

وهكذا فان الموحدين الذين ركزوا للمرة الاولى وحدة الاسلام السياسية من حدود قشتالة الى ليبيا قد ساهموا في تأصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامي في المغرب (45) .

وقد استمر نفوذ الموحدين ازيد من قرن ، كان لهم في غضونه اعمق الاثر في عدوة الاندلس المرامية الاطراف ، فانتصار يعقوب المنصور في الاندلس قد اضفى على الفن طابعا خاصا وحقق بتساوق مع مدرسة القيروان التجانس الفني بين الشرق والغرب ذلك ان المغرب تمكن عن طريق افريقيا من الاتصال بعالم

---

(41) تاريخ المغرب ج / ص 252
(42) مقدمة كتاب الفن الاسلامي لمارسي .
(43) في كتابه وصف وتاريخ المغرب ج ص 314
(44) التاريخ القديم لافريقيا الشمالية ج 6 ص 281 ولكن المؤرخ اشار دون نقد الى هذا الراي في كتابه (مؤسسات واعراف البربر في المغرب ص 28) .
(45) مارسي ــ الفن الاسلامي ص 305 .

جديد متأثر بالعناصر الفنية المصرية والعراقية ولكن هزيمة العقاب ضعضعت بعد ذلك بخمسة عشر عاما اركان الدولة الموحدية التي زحزحها المرينيون عن ملك المغرب بما كالوها من ضربات متوالية ، هذا وقد احتل الموحدون فى تاريخ الفن الاسلامي مكانة مرموقة تفوق ما كان للمرابطين فى هذا الحقل ، وذلك بالرغم عن معارضة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع و لزخارف والنقوش ، غير ان البلاط الموحدي ما لبث ان تلألأت فى ربوعه مجالي الفن ايام عبد المومن الذي اضفى رواء على مساجلات الشعراء كما أقام العمارات الرائعة وازداد الفن روعة فى عصر ولده يوسف الذي زخر بلاطه بالاطباء والفلاسفة امثال ابن رشد وابن طفيل وابن زهر وابي مروان القرطبي (46) .

وكان ابن يوسف هذا يقطن فى اشبيلية التي زخرف معمارها بأبهى واروع مما زين به حاضرة مراكش ، اما ولده يعقوب المنصور فان بدائعه الفنية تشهد بأنه اروع بناء فى العصر الموحدي (47) مثال ذلك المؤسسات المقامة فى اشبيلية والرباط ومراكش

وبفضل الموحدين تجلى القرن السادس لبعض علماء الآثار كعصر بلغ فيه الفن الاوج فى الشرق الغربي من العالم الاسلامي (48) ، وقد شرع عبد المومن فى آن واحد فى بناء مسجد تازة والمدينة نفسها وكذلك مسجد تينمل معهد الدولة الموحدية الذي لم تبق منه سوى معالمه ، اما فى مراكش فان كتبيته الاولى هدمت وقد تمكنت مصلحة الآثار الاسلامية والفنون الجميلة من الرسم الاول لهذا المسجد ثم بنى اولاده الكتبية الحالية محاذية للاولى ومتوجهة بدقة نحو القبلة ، غير ان جانبا من هذه البنايات لم يتم الا فى عهد يعقوب المنصور .

وتبدو الهندسة المعمارية الموحدية فى اجلى واجل معالمها فى مساجد مراكش وحسان (بالرباط) (ومرصد الخالدة باشبيلية) .

ففي منارة الكتبية توجد طبقات متواليـة من الغرف المقوسة السقف تصل بينها درج مركزية لا مرقاة لها ، ويلاحظ وجود نفس التصميم فى كل من الخالدة وحسان ، فالجدر مطلية بجص اصفر اكلس اي ضارب إلى اللون الرمادي ، وما زال هذا التبليط جاريا به العمل فى مراكش الآن ، وتنعكس على صفحته تموجات وضاءة تنسل الى داخل المنارة من النوافذ المفتوحة فى عرض الحائط وتؤدي الدرج آخر المطاف الى الجزء العلوي من المئذنة المطل على المدينة وتستمد النقوش تسطيراتها من اشكال الزهر والسعف الجامعة بين القوة والرقة (50) ، اما فى الطبقة الارضية فان القبة مخروطة الشكل تبعا للاسلوب الاسلامي الاسباني بينما تحتوي القاعة السادسة والاخيرة على اغنى قبة ثمانية الهندام ذات اضلاع ومقربصات تتكون منها مجموعة هندسية رائعة ولكن لا يلاحظ فى مجموعة اجزاء المنارة اي عنصر جديد يمس الاسلوب او الهندام العام الشائعين فى المغرب اللهم الا اذا استثنينا ضخامة برج المئذنة وقمتها والتناسق الاصيل فى الزخرف والتنسيق ، وقد اكد كل من طيراس وباسي ان الكتبية اجمل معبد اقامته الخلافة الاسلامية فى المغرب ، وانه يعادل فى جدة اسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة والانطباعة التى ترتسم فى نفس الزائر لهذا المسجد هي الروعة والتأثير البليغ ذلك ان مساجد الموحدين اكمل واروع المساجد الاسلامية، فهى عبارة عن خميلة من الاسطين تتجلى فى غضونها جلالة الصحون والاروقة الممتدة بين الاعمدة والحنايا وصفاء الاقواس فى رسومها المتناهية والجناس الاخاذ بين الصحن المركزي والصحون الجانبية بأقواسها المقربصة وقببها البديعة وسقوفها الخشبية السامقة تتلألأ فى منتهى الصحن الذي تخيم عليه اشعة خافتة ـ وضاءة المحراب الناعمة وفصوص العاج المعشقة فى تضاريس المنبر ولمعان الفسيفساء بحيث تنبثق من هذه المجموعة المعمارية الخلابة عظمة تجمع بين الوداعة والنعومة، فجامع قرطبة رغم سعته لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق ومع ذلك

---

(46) القرطاس ج 2 ص 176 .
(47) مارسي ـ الفن الاسلامي ج 1 ص 303 .
(48) الهندسة المعمارية الاسلامية فى الغرب ص 200 .
(49) يوسف هو الذي شرع عام 567 هـ فى بناء المسجد الاعظم باشبيلية (القرطاس) لابن ابي زرع ـ طبعة سلا ، ج 2 ص 186 .
(50) مجلة هسبريس التي تصدرها كلية الآداب بالرباط ، المجلد السادس عام 1926 ، ص 107 .

فان عددا كبيرا من رؤوس الاساطين فى الكتبية هو اصل اندلسي ، فالاعمدة الاربعة التي تساند قوس المحراب من مخلفات الفن الاموي (وتوجد ايضا فى المسجد الموحدي بقصبة مراكش اعمدة اموية من الصعب وجودها ملتئمة فى قرطبة نفسها ، فجامع الكتبية يشكل متحفا حيا للاعمدة الموحدية التي ينيف عددها على الاربعمائة والتي ما زالت تحتفظ باصالتها المتجلية فى عبقرية الفنان الاندلسي الموحدي ومهارة يد الصناع ، وقد اكتسى فى بناء رؤوس الاعمدة غلالة من الخصب الذى لا ينضب معينه لم يسبق له نظير فى الغرب الاسلامي ، ولن يسمح الزمان بمثله (51) .

اما منبر الكتبية فقد تحدث عنه ابن مرزوق فى مسنده (52) فاشار الى ما اكده اهل الفن من جودة واتقان ترصيع منبري جامع قرطبة ومسجد الكتبية فى حين ان المشارقة لا علم لهم بفن النقش على الخشب برقة واناقة ، ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر الى عبد المومن بن علي (53) .

ويرى كل من طيراس وباسي (54) ان هذا المنبر هو اجمل منبر فى الغرب الاسلامي بل ابهى واروع منبر فى العالم الاسلامي اجمع وما زال قائم الذات الى عصرنا هذا فى الكتبية ، الا ان بعض اجزائه تميل الى التداعي وقد تعرض ميليي فى كتابه عن الموحدين (ص 128) الى المنارات الثلاث ، فذكر ان قيمتها لا ترتكز على ضخامتها وتوازنها فحسب بل ايضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الاناقة مع بساطة فى الزخرف والنقش واصالة فى الذوق الذى يحدق بها ويحويها دون مساس بوحدة هذه المجموعة التي تسري فى معالمها آثار السلطان المؤسس لها محي الملة والدين وحامي التقاليد ، بل مدعم الاسلام فى ربوع المغرب ، وفى ايام الموحدين اصبح العمل جاريا باقامة الاسوار لحماية المراكز الكبرى ، ونحن لا نساند ما زعمه الاستاذ جورج مارسي (55) من ان الموحدين اختاروا منهجا مغايرا لاسلوب سلفهم فى هذا النوع من البناء والتعمير فاذا كان بنو عبد المومن قد هدموا اسوار بعض كبريات الحواضر المغربية كفاس وسبتة وسلا (56) فان هذا الامر لا يعدو ـ فى نظري ـ مجرد وسيلة حربية استغلها المرابطون انفسهم ـ كما رأينا ـ بهدم اسوار صدينة ثم فاس على ان هذه الاسوار اعيد بناؤها بمجرد قضاء الدولة الجديدة على اعشاش المقاومة التى لجأ اليها خصومها ، وقد اضطر عبد المومن نفسه الى تجديد بناء ما هدم ، فالاستاذ جورج مارسي الذي اغفل هذا العنصر الهام فى الستراتيجية الحربية عند المرابطين ، وكذلك الموحدين يظن ان هؤلاء رجعوا الى اسلوب سلفهم .

وقد بنى الموحدون مدينتين اثنتين هما تازة (ايام عبد المومن الذي حصن تينمل ثم جبل طارق عام 555 هـ) والرباط على يد المنصور الذى اهتم خاصة بالقلاع والحصون ، والمنصور الموحدي اساء اختيار موقع مدينة الرباط حسب بعض المؤرخين الذين يزعمون انه ندم على ذلك ، الا ان هذا الزعم لم يتأكد ، وقد عقب مارسي على ذلك ملاحظا ان بناء رباط الفتح بما فيه من باب الرواح وباب القصبة الرائعة يعتبر انتاجا قيما نادر المثال لا مجال للشك فى جدواه وقد سبق لان تاشفين ان اقام اول رباط للجهاد فى هذا الموقع وقد تجاوز طول اسوار مدينة المنصور خمسة كيلومترات ، وعدد ابراجها 74 ، واندرست اعلام ما كان يسمى بقصر عبد المومن فى الحروب التي نشبت بين الموحدين وبني مرين (57) .

وقد امست هندسة القلاع فى آخر عهد الموحدين عملا مندرجا فى تقاليد ملوك المغرب والاندلس فى العصور التالية .

---

(51) طيراس وباسي (هسبريس مجلد 6 عام 1926 ، ص 107 .
(52) مقتطفات نشرها ليفي‌بروفنصال فى مجلة هسبريس عام 1925 ، ص 65 .
(53) الحلل ، طبعة تونس ص 109 .
(54) هسبريس مجلد 6 عام 1926 ، ص 169 .
(55) الهندسة المعمارية الاسلامية ص 220 .
(56) الاستقصا للناصري طبعة القاهرة ج 2 ص 11 . وزهرة الاس ص 78 .
(57) بنيت اسوار بادس والحسيمة ومليلية عام 601 وعلى يد يعيش عامل الناصر الموحدي (الذخيرة السنية ص 39) .

وقد اقتبس بنو عبد المومن من الاساليب الاندلسية لا سيما بناء السواقي وجلب المياه ، فقد اسست قنوات نقلت مياه عين غبولة الى سلا ورباط الفتح (58) حيث وضعت انابيب ثانوية لايصال الماء الى الجامع الكبير والزاوية التجانية بعد ذلك، ومناعة تبليط هذه القناة لا تقل عن قوة الاسوار الموحدية بالرباط (59) وهنالك قنوات اخرى ترجع لهذا العصر فى مراكش وفاس وباقي مدن المغرب .

وقد اكد ميلبي (60) ان ابا يعقوب الموحدي بنى القناطر ومعابر المياه مبرهنا بذلك عن اهتمام نادر بالصالح العام ،وقد اسس ولده المنصور منارات وقناطر (61؛ وحفر مطافي واقام الملاجيء فى الفلوات من سوس الاقصى الى سويقة ابن مذكود فى حدود طرابلس .

ولم يعثر على اي اثر للمدارس او المرستانات التي اشار اليها صاحب القرطاس والمعجب ، ويظهر ان المستشفى الذي بناه يوسف بمراكش فى القسم المنبسط من المدينة كان يتسم بطابع عصري وقد وصفه المراكشي (62) بقوله :

(وبنى بمراكش بمارستان ما اظن ان فى الدنيا مثله وذلك انه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فاتقنوا فيه النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وامر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار المثمومات والمأكولات، واجرى فيها مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على اربع برك فى وسطه احداها رخام ابيض ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والاديم وغيره بما يزيد على الوصف ... واجرى له ثلاثين دينارا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجه عما جلب اليه من الادوية ، واقام فيه الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال ، واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا نقه المريض فان كان فقيرا امر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يشتغل ، وان كان غنيا دفع له ماله وتركته ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى ان يستريح او يموت . وقد وصف ميلبي هذا المارستان بانه يخلف وراءه مصحات اوربا المسيحية وتخجل منه حتى اليوم (اى عام 1926) مستشفيات باريس (63) وقد ترعرعت المارستانات فى العصور التالية لاسيما فى عهد المرينيين (64) وقد عرف فن الزخرفة الاندلسي المغربي ـ نظرا لزهد وتقشف عبد المومن وخلفائه ـ نوعا من البساطة (65) حدت فناني الاندلس الى الاجتهاد لضمان خطوط الزخارف وفحواها وبذلك قويت حاسة الاتقان وسما الكيف والقيمة لاسيما مع توفر الوسائل وكفالة الذرائع المادية التى لم يسبق للفن الاندلسي ان عرف نظيرا لها منذ ازدهار مملكة قرطبة فقامت المؤسسات الضخمة وقد عجلت المجموعات الفنية الموحدية بمراكش واشبيلية والرباط بانبثاق الاساليب الكلاسيكية للفن الاسباني المغربي بحيث لن يتاتى بعد ذلك للفنان الاندلسي ان يتصور او يحقق عملا يمتاز بمثل هذه السعة والفخامة ، وقد تبلورت فى هذا العصر فى مجموع انحاء المملكة حضارة بانعة مؤتلقة المعالم انعكست اشعتها الخلابة على الحياة المدنية وحتى فى بعض مظاهر حياة البادية فاجتمعت فى الهندسة المعمارية رغبة فى ضمان جودة

---

(58) راجع التاريخ الصغير للرباط للاستاذ كايي .

(59) القرطاس ـ طبعة سلا ، ص 146 ، وكتابا حول القنطرة الموحدية لنقل الماء بالرباط ـ هنري باسي ـ المجلة الافريقية .

(60) كتاب الموحدين ص 129 .

(61) منها قنطرة من معديات بنيت على وادي الرومان اى نهر ابي رقراق بين الرباط وسلا (الاستبصار) وقنطرة من الواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يجزر النهر فاذا مد عبروا فى القنوات (المراكشي فى المعجب ص 222) وقد بنى الاندلسيون السلويون ايام السعديين قنطرة على النهر تجاه منارة حسان (التاريخ الصغير للرباط ص 113) (بقلم كايي) .

(62) المعجب ـ طبعة سلا عام 1357 ـ موافق 1938 ، ص 177 .

(63) الموحدون ص 129 .

(64) راجع «الذخيرة السنية» ص 100 وتاريخ الطب والاطباء للمؤلف .

(65) تاريخ المغرب طيراس ص 368 .

الكيف مع حاسة العظمة واستعملت اساليب آلية مقتبسة من علم الحيل لانجاز التصميمات الهندسية(66) وقد لاحظ الاستاذ اندري جوليان ان الحضارة الاندلسية اتسمت اذذاك بطابع رائع صادف ازدهار النظام الذي حققه الموحدون ، وبذلك أخذ كل واحد حظه من الاشعاع الحضاري وامتد ذلك طوال القرون التالية حيث تغلغلت مدنية حق كثمرة للمبادىء وثقافة فكرية اخاذة في اعماق الجبال المغربية (67) وقد اكد الاستاذ روبير مونطاني هذه الانطباعة عند ما وصف المعالم التي تشهد بمدى اسهام الانتصارات الموحدية في نشر الحضارة بالنواحي الاطلنتية التي لم يسبق للعناصر الاجنبية ان تسربت الى حواجزها المنيعة (68) .

وقد استنتج الاستاذ ميليي ان ملوك بني عبد المومن لم يكونوا مجردين عن احقية اعتلاء الارائك التي خلفهم فيها في الصعيد العالمي ملوك غربيون امثال فريدريك الثاني ، وسان لوي فرديناد (69) .

قصبة الاوداية

ولنضرب مثالاً حيا بقصبة الاوداية برباط الفتح فهذه القصبة الموحدية محاطة بسور سواء على طول نهر ابي رقراق ام تجاه البحر ونحو السهل البري ولم يعد هنالك من جهة الوادي سوى قطعة جدار قرب ما يسمى بصقالة طولها نيف وثلاثون مترا ، وارتفاعها نحو ثمانية امتار وبجانبها ما يدعى بمستودع مولاي اليزيد (اي العلوي نجل السلطان محمد بن عبد الله) والكل مقام فوق الصخر بحجر غير منحوت ، وهنالك بقايا اسوار اكثر اهمية تقع بين مقهى الاوداية والبناية الدائرية المسماة المدورة التي تغمرها مياه الوادي عند المد ، اما من ناحية البحر والبر فان السور الممتد ما زال قائما ، ويبلغ معدل عرض هذه الاسوار مترين اثنين ونصف متر بينما يصل على مقربة من برج سوق الغزل الى أزيد من ثلاثة امتار قد طلي ظاهرها بدهن سميك ، وكان الحرس مبثوثا فوق نهج سوي قد مد على هذه الاسوار يذهب ويجيء لخفر الجوانب المشرفة على المدينة والبحر في معزل عن الانظار بفضل حاجز منيع قد فتحت فيه ثغرات تنفذ منها البندقيات . وليست كل هذه الاجزاء من صنع الموحدين لان بعضها قد تجدد بناؤه منذ نحو القرنين بفضل ما أولاه الملوك العلويون من عناية فائقة لهذه التحصينات، اما الابراج التي تعلو الاسوار فبعضها ما زال ماثلا للعيان في روعته المهولة مصوبا ثغراته نحو المحيط او تجاه المدينة .

ويظهر في خصوص مادة البناء في سور قصبة الرباط انها وسط بين النهج المعماري المرابطي وبين المعطيات الموحدية التي برز فيها مزيج من الملاط المقوى بالرمل والماء ، فالاسوار التي يرجع تاريخها الى عهد يوسف بن تاشفين وخلفائه قد بنيت ـ كالقسم المشرف على سوق الغزل ـ من الحجارة غير المنحوتة والآجر او من الحجارتين المبسوطة وغير المنحوتة ، وقد استخدم الموحدون غالبا الحجارة وحدها دون تحميل انفسهم عناء نحتها كما هو الحال في ابراج موحدية اخرى غلب عليها الطابع القرطبي ، وقد تأثروا هنا ببدائية سلفهم اللمتونيين ، ومع ذلك فان القصبة لم تكن تخلو من روعة وجلال .

— ◆ —

وينفذ الزائر الى قصبة الاوداية من ثلاثة ابواب اكبرها الباب الاثري المؤدى الى سوق الغزل ، والثاني هو الباب الواقع بين الباب الاول وبين البرج ، ويظهر انه حديث العهد يرجع تاريخه الى العصر العلوي، بينما يقوم الباب الثالث العتيق قبالة الجهة الشمالية

---

(66) ذلك ما حكاه صاحب زهرة الآس ص 69 من ان خصة من المرمر الابيض وزنها 143 قنطارا نقلها ابو الحسن من المرية الى العرائش ثم الى فاس على ظهر عربات خشبية .

(67) المغرب المجهول ـ موليراس ج1 ص 28 . Mouliéras

(68) البرابرة والمخزن ص 77 .

(69) الموحدون ص 159 .

الشرقية للمتحف . اما الباب الكبير فانه في منتهى الروعة يبلغ طوله 38ر60 م وعرضه 16 م ، ويتراوح علوه بين 12 و 13 م ، وتحتوي طبقته الارضية على ثلاث قاعات متداخلة وعلى طبقة اولى تحوي خمسة ممرات فوقها سطح يطل على مجموع القصبة ، وتبلغ مساحة القاعة الاولى نيفا وسبعة امتار في مثلها تعلوها قبة سامقة مع حنايا جانبية تليها قاعة ثانية في نفس الاحجام مقببةومحلاة بمناجد Pendentifs شبيهة بالجواهر المنظومة . أما الفرقة الثالثة فانها أعرض ويزدان الوجه الباطني للباب بعضادات أو أعمدة مربعة تحمل مساند ناتئة تعرف اليوم بطاولات الجدار Consoles ولاتزال بقايا التبليط الذى كان يغطي أرض القاعات ، ويذكرنا تصميم باب القصبة بأحجامه واشكاله المنعرجة بتخطيطات أبواب السور الموحدي لرباط الفتح الا ان ترتيب الغرف يختلف فيهما ، وقد لا يبدو جليا العامل الداعي الى تحلية غرف ذات هدف يتسم ظاهرها بطابع عسكري الا ان هنالك عناصر تدل على ان السمة العسكرية لم تكن هي البارزة في هذا التصميم لان ضخامة مصراعي الباب مثلا لم تكن لتعين على الصمود أمام ضربات الاكباش (وهي آلات حربية تتألف من عمود خشبي او من حديد تدك بها الاسوار والابواب) كما أن الممرات العلوية لم تكن تشكل غرفا حصينة للدفاع ولا توجد اية فائدة عسكرية في وفرة القاعات .

وهكذا يمكن القول ــ مع كايبي ــ بأن باب قصبة الاودايا ليست في مجموعها جهازا قويا للحماية والاستحصان بل هي لا تعدو كونها مدخلا عاديا لقصر من القصور تحيط به أسوار زيادة في الدعم وبرابط الجند في احدى القاعات بينما يتخذ الخليفة من الغرفتين الاخريين قاعتين لاستقبال رعاياه اثناء مقامه على ضفاف ابي رقراق (70) .

ويلاحظ أن انعدام الملاط المقوى Béton قد يثير الدهشة بالنسبة للعصر الموحدي الذي امتازت فيه الهندسة العسكرية بالاستعاضة عن الحجارة بهذا الملاط لا سيما وان الابواب الاخرى لمدينة الرباط تغايرها تماما من حيث مادة البناء .

وقد قيل من جهة اخرى بأن وفرة القباب في افريقيا الشمالية ترجع لقلة الاخشاب الفنية الرقيقة

وقد فند كايبي هذا الرأي خاصة باعتبار عصر الموحدين ويظهر أن اللجوء الى القباب يهدف الى تفادي هلهله الاقواس المعروشة المستطيلة . وقد اظهر النحاتون براعة في نقش بابي القصبة وهو نحت ثري منوع في صلب الحجر على مستويات عديدة تتخلله خطوط هندسية تحدد مختلف الاقسام وتحيط كتابات الخط الكوفي بالمشتبكات (Entrelacs) وبأفاريز الزخرف السعفي Frise de palmettes الا انها غير واضحة ويعلو الجميع افريز من الحنايا المرضومة (أي المسدودة) وتقضي التقاليد بأن يكون الوجه الباطني للابواب أقل تنسيقا من الوجه الخارجي الا أن باب قصبة الاودايا تشذ عن هذه القاعدة فتبرز فيها كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية وحنايا متفتحة وافاريز واشرطة كتابية وأقواس مفصصة (Arcs lobés) (أي ذات قويسات طبقا للفن الاندلسي المغربي) واقواس حدوية Outrepassés (أي شبيهة بحدوة الفرس أو نعله) وتتجلى التخطيطات الكوفية في أروع مظاهرها وهي اجمل انواع الخطوط واوفقها للنقوش المعمارية ولذلك كانت تشكل أحد المجالي البارزة في الفن الاندلسي ، اما الرسوم النورية أو الزهرية فانها تشغل ايضا في هذه النقوش حيزا واسعا كما يوجد رسم في شكل حية قائمة على ذنبها انطلاقا من الاقواس المفصصة في الوجهين معا ويتوافر هذا النوع من الرسم في الابواب الموحدية الكبرى كباب كتاوة (مراكش) وباب الرواح (الرباط) وستحلى بها ابواب شالة في العهد المريني ، والملاحظ ايضا أن الرسوم السعفية (اى التي تتخذ اشكال سعف النخل) تعتبر من العناصر الكلاسيكية في الترخيمات الموحدية وهي موجودة في جميع الابواب المومنية الا انها ابرز واوسع في باب القصبة خاصة في الوجه الخارجي للباب وهي من المقتبسات الراجعة الى الفن القوطي قبل الاسلام .

وبالرغم عن ثراء النقوش من حيث الاشكال والتقاسيم فانها تظل واضحة المظهر خفيفة المس دون أي غلو ولا تشعيب بخلاف ما سيمتاز به الفن في عهد بني مرين من تكثف ووفرة . وهناك تناسب بين الترخيم في مختلف أجزاء الهيكل العام يتسم بالقوة والرشاقة معا بحيث لم يتخلف الموحدون في ذلك عن تقاليد الفن الاسلامي شرقا وغربا .

— ◆ —

(70) تاريخ مدينة الرباط ، ص 100 .

ومسجد القصبة اقدم جامع فى مدينة رباط الفتح وهو يقوم فى قمة القصبة وينحرف محرابه نحو الشمال على نظرية الموحدين فى فهم الحديث الشريف « ما بين المشرق والمغرب قبلة » (71) وقد طبق بنو عبد المومن فكرتهم هذه فيه لانه ثالث مسجد موحدي بعد جامعي تازا والكتبية ، وقد ظل الى أوائل القرن العشرين مهبط الملوك يؤدون فيه صلاة الجمعة كلما امتد مقامهم بالرباط وهو من بناء عبد المومن بن علي (72) وقد ادخلت عليه تعديلات خاصة فى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (73) الذي جدد بناءه على يد احد الاعلاج المسلمانيين (74) احمد الانجليزي ويحتوي المسجد على سبعة صحون مع صحن حرد (أى بعضه اطول من بعض وغير متساو فى الطول) تحيط به أبهاء فى جهاته الاربع وتنبري المنارة على بضعة امتار جنوبي شرق جدار القبلة بجانب ملحقات مختلفة على طول هذا الجدار كمسجد الجنائز ومقصورة الامام والكتاب القرآني (او مسيد وهو تحريف مسجد) والمراحيض وتكاد مساحة الجامع تكون مربعة الشكل (25 م فى 25ر6 م) ويغلب استعمال الحجر غير المنحوت مع حنايا واساطين من الآجر وتغطي « البرشلة » صحون الصلاه مزدوجة الانحدار فى شكل ما يسمى فى الشرق بجبهة الجملون عدا سقف مسطح فوق الصحن الاخيروالابهاء، وقد تجدد التسطيح أواخر القرن الماضي حيث كانت مياه المطر تنصب فى ميازيب الى صهاريج او مصانع تحت الصحون عطلت الآن واصبحت المياه تجري على طول الجدار الخارجي ، وللجامع اربعة ابواب تعلوها اقواس مكسورة حدوية الشكل وتسندها عضادات ويمتاز بابان اثنان كلاهما بساريتين يتصل تاجاهما بواسطة طنف ، وكانت الصومعة معزولة عن المسجد ولكنها اصبحت منذ عام 1940 موصولة بالمرمر المكشوف المحاذي لجدار القبلة ، واذا لاحظنا ان جوامع الموحدين تتسم بالتناسق فى أجزائها فاننا نستغرب فقدان هذا الانسجام فى جامع القصبة الذى يظهر ان التعديلات المدخلة عليه قد غيرت معالمه تغييرا عميقا ولم يجد المهندسون مجالا واسعا لحفظ هذا التوازن الفني نظرا لتكاثف الابنية حول المسجد، وليس هنالك ما يؤكد ان المنارة من بناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله كما يظن كايي .

أما السور الموحدي الذي أسسه يعقوب المنصور بالرباط فقد تم بناؤه ـ على ما يلوح ـ حوالي عام 593 هـ ـ 1197 م وهو يمتد على طول 5263 مترا غربي وجنوبي المدينة التي تحميها من الجهتين الشمالية والشرقية قصبة الاوداية ونهر ابي رقراق والمحيط الاطلنطيقي ، وتبلغ المساحة الداخلية المحاطة بالاسوار 418 هكتار ينفذ الناس اليها من اربعة ابواب هي غربا باب العلو وباب الرواح واخرى داخل الثكنة العسكرية المحاذية للقصر الملكي ، وجنوبا باب زعير المؤدية الى شالة .

وما زال السور ـ رغم مرور نحو من ثمانية قرون على تأسيسه ـ قوي الدعائم عدا قمته التي تفتتت عناصرها وهو مبني من الملاط المقوى Béton الذي يحوي الثلث من الكلس بينما لا تتعدى نسبة الجير عادة السدس او الثمن ، ومعلوم أن الملاط الموحدي هو اقوى الملاطات اذ يشتمل فى بعض المواضع على آجر مدكوك فى شكل « طابية » وعلى حصيات صغيرة قد لف بعضها ببعض فأصبحت كالحجارة فى صلابتها لا ينال منها المعدل الا قليلا ، وقد غالبت أسافل السور جوارف المطر ، اما عرض السور فيبلغ احيانا مترين اثنين ونصف متر قد عبدت فوقها طريق مشرفة للحراسة يدعمها حاجز منيع يقل ارتفاعه عن المتر الواحد فى حين يصل علو السور الى ازيد من عشرة امتار ، ويمكن أن نلاحظ اليوم وجود اربعة وسبعين برجا سبعة منها تمتد من برج الصراط فى الطرف الغربي الى باب العلو وتسعة الى باب الحد وخمسة وعشرون الى باب الرواح وسبعة على طول ثكنة الحرس الملكي واربعة وعشرون الى الجهة المارة من باب زعير والمطلة على ابي رقراق قرب ما كان يسمى بالمنزه (وهو مقر السفارة الفرنسية الآن) ،

(71) نظرية لا تتفق وموقع المغرب من الوجهة الجغرافية لانها خاصة بالمدينة المنورة ولذلك قابلها الكثير من علماء المغرب بأن القبلة بالنسبة الينا هي ما بين الشمال والجنوب .

(72) محمد بوجندار فى كتابه حول تاريخ القصبة (مخطوط المكتبة العامة بالرباط عدد 1047) .

(73) تاريخ محمد الضعيف (مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط عدد 660) .

(74) هكذا يسمي صاحب العقد الفريد (ج 3 ص 296) وابن سعيد (ص 137) الحديثي العهد بالاسلام ويسميهم ابن حجر بالاسلمين (الدرر الكامنة ج 1 ص 315) .

وقد يطول احيانا الحيز الواقع بين برجين ربما لانهيار بعضها خلال هذا الفاصل ، وقد ظلت مدينة رباط الفتح فى حدودها الموحدية غير آهلة طوال عدة قرون وكانت حدودها الجنوبية الشرقية هي السور الاندلسي الممتد من سيدي مخلوف الى باب الحد (مارا بباب البيوبية وباب شالة وباب التبن) ويقول الاستاذ كاييي (ص 131) بأن الرباط كان يعرف فى هذه الفترة بسلا الحديثة والذي يظهر أن هذا الاسم قد اطلق على سلا منذ عهد الشريف الادريسي (75) أى قبل بناء رباط الفتح وربما كان ذلك فى نظرنا ـ للتمييز بينها وبين شالة الرومانية لحملها نفس الاسم تقريبا .

وقد ذكرنا ان ابواب السور الموحدي خمسة بادراج الباب الواقعة داخل ثكنة الحرس الملكي وهي تحمل الاسماء الآتية : باب العلو وباب الحد وباب الرواح وباب زعير .

وباب العلو هو اقرب الى المحيط وهو يبعد عن البحر بمسافة 544 م ويشكل هيكلا ضخما طوله 19ر2م وعمقه 20ر92 م وعلوه 10ر85 م كما يشتمل على غرفتين متوازيتين احداهما مكشوفة وتعلو الكل ابراج ناتئة مع وجود حجارة منحوتة جميلة فى الزوايا وقلب الواجهتين الشرقية والغربية وتوجد قاعة صغيرة مربعة داخل الغرفة الاولى كانت مستودعا للسلاح وتؤدي الغرفة الثانية الى السطح الذي يغطي مجموع البناية تحيط بها حواجز غير منحوتة يبلغ ارتفاعها 26ر2 م غربا واقل من متر من جهة المدينة وقد فتحت فيها ثغرات ثمان ويتصل السطح بالطريق المعلقة فوق عرض السور وينزل درج فى الغرفة المكشوفة الى بطن الارض ليؤدي الى ممر مستطيل لعله كان مخبأ لجند الخفر .

وقد نقشت على الجدران كتابات فى صلب الحجارة المنحوتة مع صور سيف وخناجر بعضها معقوف الطرف وصورة قوس يحمل سهما مصوبا نحو الاعلى فى روعة خلابة . اما باب الحد فهو لا يختلف كثيرا عن الباب السابق ويقع على بعد 505 امتار منه، وقد تجدد بناؤه عام 229 (76) فى عهد السلطان مولاي سليمان .

وتمتاز هذا الباب بثلاث غرف متوازية احداها مكشوفة كما تمتاز بوجود ثلاثة اقواس تدعمها روافد متينة Arcs doubleaux تحمل عقد القبة قد انفصمت عضاداتها شمالا داخل الجدار ، وقد وصف الاستاذ كاييي (ص 137) هذه الميزة بانها استثنائية فى الهندسة المعمارية المغربية نظرا لانعدام مثل هذه الاقواس فى مآثر اخرى ، واشار الى احتمال نسبتها الى احد الاعلاج او الاسرى الاوربيين ، وتتفتح باب الرواح (77) اليوم امام شارع النصر (الذي هو اعظم شارع فى العاصمة تقام فيه المهرجانات والاستعراضات الرسمية) على مسافة 1021 م جنوبي باب الحد وهي اعظم أبواب السور الموحدي واكثرها تنميقا ، يبلغ عرضها 28 م وعمقها 93ر26 م وارتفاعها 12 م وتحتوي على اربع قاعات احداها مكشوفة كنها مربعة الشكل (65ر5 م فى مثلها) وعلى ممرين (مساحتهما 20ر4 م فى 20ر2 م) وتعلو القاعة الاولى قبة ذات اضلاع مشمة (على الطراز القوطي) (78) عقودها الركنية من الآجر ، لها ستة عشر اخدودا تتجمع فى قبيبة ذات ثمانية فصوص (اى قويسات او اقواس صغرى) ونعثر على هذا النموذج من القباب فى عدة غرف بمنارتي الكتبية وحسان الا ان قبة باب الرواح اضخم وان كانت اقل جمالا ورواء فى حين تمتاز بسمة خاصة، وهي أن قاعدة كل عقد ركني تدعمها سويرية متوجة ومحلاة بما يسمى بالاقنثا او شوكة اليهودي وهي نبتة اتخذت أوراقها مثالا للزينة فى الابنية القديمة واختص بها تقريبا الطراز الكورنثي اليوناني وتصطبغ هذه المجموعة الرائعة بالرشاقة والخفة ضمن الهيكل الضخم المتشكل فى الحنايا والاقواس ، ولا شك ان بعض القاعات كانت مخازن او مخابيء لاستخدام الحرس العسكري ، وقد جدد السلطان سيدي محمد ابن عبد الله العلوي كثيرا من المظاهر الاثرية فى هذا الباب (79) بل اضاف عناصر طريفة كقوس الانفتاح المكسورة والمشرعة Surhaussé (وهذه هي

---

(75) نزهة المشتاق ، طبعة 1957 ، (ص 48) .
(76) اكد الضعيف ذلك فى تاريخ الرباط ص 506 .
(77) ترجم كاييي باب الرواح بباب الريح Porte du vent وهو واهم فى ذلك لان الرواح معناه الروحة اي الذهاب صباحا .
(78) الزخرف المشع اصله اغريقي يمتاز بتشكيلات زخرفية كثيرة وورقات متفتحة متعددة الفصوص .
(79) تاريخ الضعيف ص 165 (مخطوط المكتبة العامة) .

عبارة عن حنية او عقد قبة يعلو سهمها او مفتاحها الى نصف مستوى الانفتاح) ، ويحيط شريط من الخط الكوفي باللوحة المركزية المأطورة للباب فى وضوح وروعة وتجانس بين المجموع والجزئيات (وهو شبيه بمثليه فى باب القصبة وباب كناوة بمراكش) وتقل الرسوم الزهرية فى النقوش حيث لا تعدو بعض الاشكال السعفية كما تقل التنميقات فى الوجه الباطني للباب طبقا للتقاليد المعمارية المتبعة التى تأبى الا أن تحلي الجدران بكتابات منحوتة على الحجر وصور سيوف دقيقة وقاذوف (أي آلة لرمي السهام الى مسافات بعيدة كالتي توجد فى باب العلو) وحسام قصير ذي نصل معقوف .

أما الباب الكائنة داخل القصر الملكي فهي تقع على بعد 880 م جنوبي « باب الرواح » وعلى مسافة 465 م شمالي برج الزاوية وهي تبلغ 21ر21 م عرضا و 80ر22 م عمقا وتشتمل على ثلاث قاعات مثل باب الحد مع وجود تعديلات ترجع لا محالة الى العهد العلوي ولا تختلف فى مجموعها غربا فى الابواب الموحدية .

وتتفتح باب زعير ـ كما يدل عليه اسمها ـ على الطريق المؤدية الى الاقليم الذى تشغله الآن قبيلة زعير وتصل احجامها الى 18ر24 م عمقا و 71ر9 م علوا و 12ر59 م عرضا ، وهي شبيهة فى تخطيطها بباب العلو مع انتظام اقل ولا تزيد قاعاتها على اثنتين متوازيتين .

وقد مد عبد المومن بن علي انابيب الى رباطه بمصب ابي رقراق لنقل ماء عين غبولة الى القصبة ، ولا شك ان هذه المجاري كانت جديرة بروعة الفن المعماري الموحدي الا ان الحفريات التي تمت لحد الآن سواء داخل المدينة او خارجها لم تسفر عن كشف أي عنصر هام من هذه القنوات ، ويظهر ان اندراس معظم هذه المعالم راجع لكون الملوك العلويين قد اقاموا قنطرة معلقة لنقل مياه غبولة فوق القنطرة الموحدية مما لم يترك اثرا لهذه ومع ذلك فقد لاحظ الاستاذ هنري باسي (80) وجود بعض الآثار الشاهدة بقيام جسر بني عبد المومن على مقربة من شمالي شالة على طول الشارع الحامل لهذا الاسم الى منعرج كائن قبالة الجامع الاعظم يؤدي الى قصبة الاوداية ، وتبلغ هذه القناة العتيقة 3ر1 م من العلو ـ بادراج عقد قوسها ـ و 59ر0 متر عرضا وهي مبنية من الملاط المقوى الذي لا تنال منه المعاول لصلابته ، الا ان الاستاذ كايبي (81) ابرز الخلاف الملحوظ بين وصف المؤرخ باسي ووصف الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي (82) الذي تحدث عن قناة من الحجر المنحوت مقامة على حنية بنفس الصناعة الفنية المعروفة آنذاك فى ايطاليا وخاصة فى روما ، فهل ينطبق هذا الوصف الرائع على قطعة من الجسر تهدمت وامحت معالمها ؟ من الصعب التأكد من ذلك لا سيما والنصوص التاريخية أو الحفريات لم تسفر عما يشير اليه، فالمشكل اذن ما زال قائما ، الا ان العنصر الهام الذي ينبغي ان يوخذ فى نظرنا بعين الاعتبار هو جودة الملاط المقوى وصلابته وهما من سمات الفن الموحدي بالاضافة الى ضخامة القناة وكثافة حجم الملاط ووضع الحنايا والاقواس الذي يساعدها على الصمود امام ضغوط المياه مهما كانت قوتها ، ومع ذلك فقد لحقت اضرار جسيمة بالقناة خلال الحروب الطاحنة التي استمرت بين الموحدين وبني مرين بعد وقعة العقاب حتى جدد السلطان المريني أبو يوسف ما تهدم وانهار خلال هذه الفترة العصيبة من تاريخ الرباط .

ومن هذا الوصف الموجز يتضح أن أبواب السور الموحدي بالرباط لها ميزات مشتركة تتجلى فى وجود منعرجات وزواتىء ضخمة وسلسلة من القاعات المتوازية احداها مكشوفة يحتوي داخل كل منها على غرف صغيرة لسكنى الحرس او خزن الاسلحة وهي تشكل مع ذلك مراكز دفاعية هامة تعززها الانعراجات المختلفة غير الموجودة فى الحصون الاندلسية التي اقتبس منها الموحدون وكذلك فى باب القصبة الخالية من كل منعرج او مركز مكشوف ومهما يكن فان الارتسامات البارزة التي تنطبع فى قلب الزائر لهذه المجموعات المتكاملة هي الشعور بالفخامة والقوة والابداع ، فهي

(80) فى كتابه « قنطرة موحدية بالرباط » Un aqueduc almohade à Rabat الذي نشره فى المجلة الافريقية Revue africaine 1923 ، ص 523 .

(81) تاريخ الرباط ، ص 150 .

(82) فى كتابه « وصف افريقيا » Description de l'Afrique, éd. Schefer, Paris, 1896, T2, p. 22

تشكل مع منارات الكتبية وحسان وجامع اشبيلية روائع خالدة فى الفن الاندلسي المغربي ، والملاحظ ان التأثير الاندلسي يغلب فى هذه الهندسة المعمارية على المعطيات المحلية ونحس فى كل ذلك برغبة المؤسس الموحدي يعقوب المنصور الصادقة فى منافسة المآثر المعمارية فى الاندلس والمغرب .

المرينيّون
وَالفنّ الأندلسيّ المغربي

فى عام 610 هـ (83) انبثقت من الصحراء قبيلة بني مرين التي قامت بحملة واسعة فى كثير من الاقاليم المغربية التي كانت تحت الحكم الموحدي وكانت حدود المغرب قبيل ذلك بعقود من السنين تمتد من السوس الاقصى (84) الى طرابلس ، الا ان الحفصيين (وهم من سلالة الشيخ عمر الهنتاتي صاحب ابن تومرت) الذين كانوا يحكمون افريقية باسم الموحدين اقتطعوا لانفسهم مملكة منفصلة عن المغرب، وفى عام 625 هـ(85) أسس محمد بن يوسف بن هود باسم العباسيين امارة بالاندلس ما لبث ان استولى عليها بعد اربع سنوات الامير محمد بن يوسف بن الاحمر (86) الذي انصاع لامير تونس ، وبذلك توالت الضربات على المملكة الموحدية فآل امرها الى الانهيار على اثر احتلال المرينيين لمدينة فاس عام 645 هـ (87) .

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران فى عهد بني مرين الذين اصبحوا اقوى ملوك افريقيا الشمالية (88) اذ بالرغم عن محتدهم الصحراوي فان هؤلاء الرجال استطاعوا بفضل اتصالهم المزدوج ببني نصر ورثة الحضارة الاندلسية وبالموحدين ـ التكيف والانسياق فى مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الاسلامي والمجالي الطريفة فى التجديد ، وقد تبلور اتجاههم فى اقامة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الاضرحة والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي اضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء فالى جانب المدينة البيضاء او فاس الجديدة المؤسسة فى ربض العاصمة الادريسية اقيمت مدينة للجهاد بالجزيرة الخضراء (89) علاوة على المارستانات والمآوي والملاجيء ، كما رصدت اوقاف متنوعة ضمن ريعها سير المؤسسات الجديدة واسعاف الطلبة .

وقد لاحظ الاستاذ الفريدبيل عن حق انه خلافا لتقاليد الشرق كان الملوك فى طليعة من تبنى تأسيس المعاهد ، فى حين تكفل بذلك الوزراء فى المشرق (90)

وعلى هذا الغرار سار الملوك المرينيون كسلفهم الموحدين طابعين بميسم خاص نشاطهم المعماري الرائع، وقد اكد جورج مارسي أن هذا النشاط الذى هو من صنيع الامراء يبرز ثراء الاسرة المالكة بحيث تكون عصور الانهيار السياسي فترة جمود فى الميدان المعماري فبعد المآثر الماجدة التي يرجع الفضل فيها الى عهد المنصور ظل المغرب يتأرجح طوال قرن فى بحبوحة من الركود لم يعرف خلالها عمارات بارزة (91) .

وقد اتسمت هذه الحركة المعمارية بطابع ديني فى كثير من الاحايين حيث اقام المرينيون مجموعة

---

(83) الذخيرة السنية ص 24 .
(84) القرطاس ج 2 ص 174 .
(85) البيان المعرب ج 4 ص 270 .
(86) البيان ج 4 ص 302 .
(87) الاستقصا ج 2 ص 7 . الذخيرة ص 99 .
(88) راجع تاريخ افريقيا الشمالية لـ André Julien
(89) الذخيرة ص 100 .
(90) الجريدة الآسيوية ـ الكتابات العربية بفاس عام 1917 و 1918 ج 10 ص 152 .
(91) كتاب الفن ج 2 ص 476 .

رائعة من المساجد فى تازة ووجدة (92) وتلمسان (93) وقد تم ذلك خاصة فى عهد ابي الحسن بفاس والمنصورة (قرب سبتة) وطنجة وسلا ومكناس ومراكش ، كما اقيمت معابد حول اضرحة الملوك مثل مقابر المرينيين فى شالة (بالقرب من رباط المجاهدين) حدا الملوك منذ عهد ابن يوسف الى عهد ابى الحسن الى اختيار هذا الجدث الطاهر) ، وقد اضفى ابو الحسن على هذه الاضرحة السلطانية مسحة من الروعة والجلال بتسويرها وزخرفتها واقامة مسجد ثان حولها ، وكان هذا الامير اذ ذاك فى طليعة زعماء الاسلام بالمغرب حيث توحدت افريقيا الشمالية لاول مرة منذ عبد المومن الموحدي تحت راية امير واحد من قابس الى المحيط الاطلنطيقي . وبلغت الدولة المرينية اوج عظمتها كما بلغت حضارتها قمة روعتها وامسى ابو الحسن ـ كما يقول اندري جوليان ـ اقوى ملك فى الغرب خلال القرن الرابع عشر (94) .

وقد قام الصوفية فى عهد ابي يوسف بدور اساسي فى المجتمع المغربي (95) وهم الذين اثاروا تلك الموجة الروحية التي انبثقت عنها زوايا ما لبثت ان ترعرعت وتبلورت تأثيراتها الاجتماعية والسياسية فى عهد الشرفاء من سعديين وعلويين حيث ان بعض ملوكهم لم يعتلوا اريكة العرش الا بفضل تاييد الحركة الصوفية الفتية التى زادها نفوذا تكتلها ضد الاجنبي الذي سيطر على كثير من المراكز الساحلية ومحا الاسلام والعروبة من ربوعها ، وكثيرا ما كانت الزوايا ولا تزال خلوة للعبادة ومربطا للزهادة ومركزا للعلم ويدل على ذلك مدى الاشعاع الثقافي والفكري الملحوظ فى زاوية الدلاء بالاطلس والزاوية الناصرية فى درعة وبالصحراء حيث قامتا بنشر العلوم والمعارف وتركيز المثالية الاسلامية والسلفية السمحة فى قلب الفيافي والجبال .

اما فى عهد المرينيين فقد اسست زاوية شالة (96) التى تعبد فيها الشاعر الوزير ابن الخطيب السلماني والتي اضافها ابو الحسن الى جناح الاضرحة بهذه المدينة الاثرية وهي بساحتها الداخلية وصهريجها واروقتها وغرفها اشبه بمعهد تتجلى فيه نفس المعالم الزخرفية المدرسية كالترخيم والنقش والزليج والفسيفساء والتبليط المرمري ، وقد بنى ابو عنان زاوية النساك بسلا التي ما زالت ببابها المنحوتة من الحجر البديع قائمة الى الآن مع بقايا غرفها الثلاث حيث كان يقطن شيخ الزاوية وطابقها الاول وصحن يتوسطه صهريج ويحيط به احد عشر مرحاضا للوضوء وتعتبر المدارس المرينية مساكن للطلبة ومركزا لدراستهم انتي كانت تتابع فى المساجد القريبة منها واحيانا كانت المدرسة نفسها تحتوي على مسجد صغير بمحرابه ومنارته .

وقد رسم التصميم العام لهذه المدرسة المغربية منذ القرن الخامس الهجري فهنالك صحن تقوم فى جوانبه الثلاثة سلسلة من البيوت ، وفى الجانب الرابع قاعة للعبادة ، وتقوم فى الطابق الاول فى بعض الاحايين مجموعات اربع من الغرف تشرف على الصحن الداخلي

ويمكن ان نعتبر توافر المدارس والمعاهد فى عهد المرينيين بمثابة رد فعل ضد الحركة الدينية الموحدية وذلك باقرار برنامج يهدف الى نشر آراء جمهرة اهل السنة الذين نصب بنوا مرين انفسهم للدفاع عنهم ، وكان المرينيون متضامنين فى ذلك مع جميع طبقات الصوفية التي ساندتهم فى دعم هذه السلفية .

---

(92) ابو يعقوب هو الذي بنى مسجد وجدة عام 696 هـ حسب القرطاس ، وقد لاحظ مؤلف الذخيرة السنية (ص 150) ان ابا يوسف هدم وجدة عام 670 هـ .

(93) راجع مقتطفات المسند لابن مرزوق فى هسبريس ج 5 ص 32 عام 1925 حيث لاحظ ابن مرزوق ان الرحالين مجمعون على اعتبار هذا المسجد كجامع هو الاول من نوعه ، وقد اسس ابو الحسن مسجدا آخر فى مدينة هنين التي اندرست معالمها منذ قرون .

(94) تاريخ افريقيا الشمالية 1931 هـ ص 446 .

(95) صحب ابو يوسف معه فى حركة الجهاد بالاندلس عام 674 هـ طائفة كبرى من صوفية المغرب ، (الذخيرة ، ص 174) .

(96) توجد لفظة الزاوية مكتوبة على الرخامة المرمرية وعلى خزف عثر عليه عام 1930 خلال الحفريات (الهندسة المعمارية الاسلامية ص 283) .

وقد اسست اول مدرسة مرينية عـام 670 هـ بأمر من أبي يوسـف (97) وهي تحتوي على مسجد ومنارة وهي المؤسسة الوحيدة التى يرجع تاسيسها الى هذا القرن .

وفى القرن التالي اقيمت مجموعة من المدارس منها مدرسة فاس الجديد عام 720 هـ (وهي تضـم ايضا مسجدا وصومعة ومدرسة العطارين ثم مدرسة الصهريج الكبرى) ومدرسة السباعيين (الصغرى) وكانتا متصلتين ثم اخيرا المدرسة المصباحيـة (98) هذه المدارس الثلاث الاخيرة بنيت بأمر من ابا الحسن الذى زود بالمدارس كبريات مدن المغربيـن الاقصى والاوسط (تلزة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور وآسفي واغمات ومراكـش والقصر الكبيـر والعباد بتلمسان وعاصمة الجزائر) . اما ولده ابو عنان فانه اسس المدرستين الحاملتين لاسمه بفاس ومكنـاس .

ويلاحظ ان هذه المدارس كانت تشتمل اول الامر على منارة وتتجلى كمسجد علاوة على ميسمها كمأوى للطلبة. وكان تصميمها مزدوج المعالم عبارة فى آن واحد عن مسجد مدرسي (كالقرويين) وعن جناح للسكنى ثم تبلورت فى التصميم بعد ذلـك مظاهـر المدرسة فالغيت الصومعة (مثل مدرسة الصهريج) ثم تقلصت مساحة المسجد الذ ى اصبح لا يعدو قاعة كبرى للصلاة دون زخرفـة خاصـة وحتى المحراب صار يقاوم ومزياق شكل قوس اصم محاط باسطوانتين دقيقتيـن .

وقد استمر هذا الاتجاه فاسقط المحراب تماما بعد بضع سنوات من المدرسة المصباحية الا ان مدرسة العطارين وهي آخر مدرسة بناها ابو سعيد تحتوي على محراب ولعل ذلك راجع لضرورة تبرير مزيـد الزخرفة والنقش (99) بمظهر ديني خاص ، كمـا ان مدرسة سلا احتفظت بمسجدهـا ومحرابهـا نظـرا لصبغتها الاستثنائية كمركز صوفي لا يحتوي على اى غرفة لسكنى الطلبة ، ومدرسة ابي عنان فى مكنـاس تمثل مرحلة انتقالية بين نوعين من المدارس يرجـع عهدهما لابى الحسن وولده ابى عنان (مسجد مربـع واروقة فى الجوانب الثلاثة من الصحن) اما المدرسة العنانية بفاس فهي تتسم بهيكلها الضخـم وروعتهـا الاخاذة لجامع مزود بمنار ومنبر لخطبة الجمعة .

اما دور السكنى المرينية فان المغرب لم يحتفظ حتى بمعالمها فيما يلوح اللهم الا فى تلمسان حيـث تساعد كتابة عثر عليها فى راس اسطوانة على ان البناية اسست عام 745هـ بأمر من ابى الحسن ، كما انبثقت الحفريات عام 1885 عن قصر صغير بالقرب من ضريح ابي مدين الغوث بالعباد ويحتوي هذا القصر الذى كان السلطان ينزل به فيما يظهر على ثلاث مجموعات مـن البنايـات .

وقد وصف لنا ابن مرزوق فى مسنده كيف بنى ابو الحسن قصرا فى ظرف اسبوع وضمنه جميع ما تتسم به القصور الصغرى من روعة وجمال ، فقد امر ابو الحسن بجمع ارباب الصناعـات من البنائيـن والنجارين والجباصيـن والزليجييـن والرخاميـن والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين فاحضروا بين يديه فقال لهم اريد دارا تشتمل على اربـع قبب مختلفة ودريرتين تتصلان بها منقوشـة الجـدرات بالصناعات المختلفة بالجبص والزليـج والنقـش فى الارز المحكم النجارة والصناعات المشتركـة ونقـش ساحة الدار وفرشها زليجا ورخاما بما فيها من طيافير الرخام والسواري والنجارة فى السقـف مختلفـة باختـلاف القبـب بالصناعـات المعروفـة عندهـم المشتركة (100) المدهونة الابواب بالصناعات المؤلفة والخزائن والخوخ جميعها والحلية فى جميع ذلك من النحـاس المموه بالـذهب والحديـد ورسم لهـم قدر ساحتها في كاغد ووقع الوفاق لجميعهم على ذلك قطيعا واوضح لهم عملها فلما تم هـذا قال لهم انـي اريدها فى مثل هذا اليوم ... فما انقضـى الاجـل

---

(97) راجع المسند لابن مرزوق (مقتطفات ليفي بروفنصال – هسبريس ج 5 ص 35 عام 1925) .

(98) نص ابن مرزوق على انها من بناء ابى سعيد فى حين ان الكتاتيب الموجودة بها تدل على ان مؤسسها هو ابو الحسن (راجع الاستقصا ج 2 ص 87 وكتابات فاس لالفريد بل ص 229) .

(99) هذه المدرسة هي ابهـى واروع مدرسة من حيث الزخرف حتـى في نظـر الفنانيـن الاجـانب (الهندسة المعمارية الاسلاميـة فى المغـرب ص 288) .

(100) الصناعات المشتركة هي عبارة عن صناعة التوريق والتسطير التي تزدوج فيها الزخـارف ذات اشكال مزهرية بنقوش هندسية .

وتم الامل وجاء اليوم المعلوم الا وهو يتمشى فيها وانا بين يديه على الوجه المشروع والغرض الموصوف وهذه غاية فى الضخامة والاقتدار وعنوان على ما وراءه (101)

وقد ارتفعت اثمان المباني اواسط عهد المرينيين بسبب تهافت الايستقراطيين على الزخرفة احتذاء بالبلاط وقد اشار ابن خلدون الى ان الدور كانت تباع بفاس بألف دينار ذهبي .

اما الفنادق التي كان بها التجار الاجانب فان شكلها المعماري يشبه شكل دور السكنى لانها تحتوي على ساحة تحذف بها غرف ومستودعات بل ومخازن لعرض المبيعات ، ومن هذا النمط ايضا القيساريات التي تغير اسلوبها الهندسي فى العقود الاخيرة حيث اصبحت عبارة عن اروقة مستطيلة تقوم بجانبها دكاكين واهراء (102) .

ولنضرب مثلا للفن المريني الرائع ببعض المآثر التى ما زالت قائمة برباط الفتح ومنها « الجامع الكبير » الواقع قرب باب شالة الذي تحده فى الجنوب الشرقي مقبرة تمتد الى السور الاندلسي وقد كتب على احدى ابوابه تاريخ 1299 هـ (1882 م) وهو تاريخ تجديد البناء فى عهد الحسن الاول ، كما ان لوحة التحبيس المرينية وهي صفيحة مربعة من الرخام مغروزة فى احدى الاساطين المحيطة بمكان العنزة هي نفسها التي كانت على ضريح السلطان ابى الحسن بشالة ، ونقلت الى المسجد فى عهد مولاي اليزيد العلوي الا انها لا تشير الى الجامع الكبير ، كما بوجود المارستان العزيزي قبالته ، وبكون احدى ادخلها على المسجد جلالة الملك المقدس المرحوم محمد الخامس ، وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ بناء هذا المسجد فاكد مؤرخ سلا محمد بن علي الدكالي انه من مؤسسات الاندلسيين الذين وردوا على المغرب فى عهد السعديين اي فى القرن الحادي عشر مستندا الى ما استنتجه من كتاب « وصف افريقيا » للحسن الوزان من عدم وجود اى اثر لبناء بالرباط فى عصره اى فى القرن العاشر الا ان مؤرخ الرباط محمد بوجندار (103) يرجح ان المسجد من مآثر المرينيين ويعلل ذلك بوجود المارستان العزيزي قبالته ، وبكون احدى الابواب قد رممت فى عهد السلطان المريني ابى الربيع وهي وجهة نظر سديدة وان كانت التعديلات اللاحقة قد غيرت معالم الاصل ويبلغ عرض المسجد على طول جدار القبلة 5ر47 م ويزيد عمقه بمتر واحد على عرضه بادراج مقصورة الامام الا ان شكله الهندسي غير مربع نظرا لعدم تساوي اضلاعه اما مساحته البالغة نحو 800 1 م . م فانها تجعل منه اعظم مسجد بالرباط بعد «جامع السنة» وهو يحتوي على سبعة صحون موازية للقبلة وعشرة عمودية ، اما الساحة فشكلها مربع منحرف عرضه اكبر من طوله تحيط به ثلاثة ابهاء اقيمت فى احدها مقصورة للنساء وبالجانب الشمالي الغربي المنارة ، وللمسجد ستة ابواب وعلى طول جدار القبلة عدة مرافق تتصل بفرع للمكتبة العامة بالرباط ـ يفصل اليوم المسجد عن المقبرة ـ وهذه المرافق هي مستودع المنبر ومقصورة الامام وجامع الجنائز ، اما الافواس فانها ذات اشكال واحجام مختلفة الا ان الحنايا التى يستند اليها الرواق امام المحراب تلفت الانظار بميزاتها الخاصة اذ هي عبارة عن حنايا مفصصة قد نحتت فيها قويسات تصل الى ثلاثة عشر متشابهة عدا قويس الانطلاق وقويس الانفتاح ، اما الاقواس الاخرى فمعظمها حنايا مكسورة وحدوية (على شكل حدوة الفرس اي نعله) او مشرعة (اي ان سهمها اكبر

---

(101) نخب من المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا ابي الحسن للخطيب ابن مرزوق (هسبريس ج 5 ـ مجلد اول عام 1925 ، ص 39) .

(102) تحدث ماس لاطري فى كتابه (معاهدات السلام والتجارة) عن الفندق بالمغرب فوصفه بانه حارة حرة يقطنها القنصل الاجنبي مع مواطنيه وترجع اليه مهمة السهر والحراسة عليها وكانت ايضا بمثابة حي له قوام بلدي يقبض فيه القنصل على الجهاز الشرطي والجمارك السلطانية هي التي تتحمل المصاريف العامة فى البناء واصلاح المساكن والكنائس والدكاكين ، وكان المسكن محترما وقانون الارث الاجنبي مطبقا (بمقتضى المعاهدة المبرمة بين المغرب وبيزة عام 1358 البند الرابع الفقرة الرابعة عشرة) وقد اكد لاطري ان الاقطار الاخرى لم تتسامح الى هذا الحد معْ الحارات المسيحية المقامة وسط المدن الاهلية بحيث كان المسيحيون يرضخون خارج المغرب الى تدابير تنطوي على اهانة وعدم ثقة (راجع كتابي بالفرنسية حول التيارات الكبرى لحضارة المغرب ص 33) .

(103) الاغتباط ص 114 (مخطوط المكتبة العامة بالرباط (عدد 1287) .

من نصف الانفتاح) كما ان معظم السطوح ذات انحدار مزدوج فى شكل برشلات او جملونيات دون ترميد ولا تنميق ، أما المحراب فان قوس انفتاحه حدوي الشكل كنعل الفرس الحديدي متقارب المركزين غير بارز الكسر يستند الى عضادتين عاليتين ، وقد ازدوج بقوس آخر خارج عن المركز فى جوف قد نحتت نقوش رائعة فى جبسه اللامع وعلته قبة متمثنة ينفذ اليها النور من ثغرة مثمناتها مع المجموع .

اما الصومعة فانها مربعة الشكل تبلغ أضلاعها 10ر5 م وقد زيد فى ارتفاعها عام 1939 فبلغت من العلو 15ر33 م بينما لم تكن تصل من قبل الى اكثر من 27 م ، وتحتوي الصومعة على ست غرف مربعة الواحدة فوق الاخرى تغطيها اقبية متصالبة الروافد تؤدي احداها الى مخدع الموقت الواقع فوق المصرية (أى العلية وهي من مصطلحات المغرب الاقصى)(104) وينفذ الضوء الى دورات الدرج من ثغرات واسعة مقوسة وملتوية فى انحناء مستقيم ويتسم المجموع بطابع البساطة الذى يزيده روعة. اما ملحقات الجامع الكبير فانها لا تمتاز بأهمية خاصة فالى جانب ممر ضيق يؤدي الى جامع الجنائز على طول جدار القبلة توجد مقصورة الامام وهي تضم غرفتين تتصل احداهما بمستودع المنبر .

واذا استثنينا النحت على الحجر فى خصوص الأبواب فان النقش على الجبس يتوافر فى المحراب وفى الوجه الداخلي للباب الكبرى وفوق الحنايا المفصصة امام المحراب مع رسوم زهرية متكاتفة تحيط بها خطوط هندسية وانضاد متراكبة من الوردات بين الاقواس دون اصباغ مع ضآلة النقوش الخشبية ؛ وتبرز فى مواضع اخرى سعفيات «موردة» او كتابات بالخط النسخي ، أما المنبر فهو من صنع علوي عادي برسومه الخشبية المنحوتة على لوحات « مأطورة » : تلك صورة عن الجامع الكبير كما هو الآن والبابان الشارعتان الى زنقة باب شالة قد اضيفتا كمنفذ خاص الى رواق النساء وكذلك الباب المؤدية الى زاوية سيدي التلمساني والفسقيتان الفوارتان فى البهو الجديد شمالي غربي الصحن . ومن الزوائد الطريفة فى المسجد نقوش المحراب ورواق الجنائز وترخيمات بعض الحنايا مما حفظ للجامع هيكله العام دون كبير تعديل ، ويظهر ان الجامع لم يكن فيه اكثر من خمسة صحون طولية مركزية بدل عشرة بجانب الصحون السبعة الموجودة الآن ، وكانت المساكن تحيط به من جهتين وهذا التخطيط متناسق الاجزاء بالنسبة للتصميم الحالي الذى يخلو نوعا ما من التوازن والانتظام اضف الى ذلك ما كانت تمتاز به الحنايا المفصصة والمكسورة والحدوية من تنوع ويذكرنا الهندام المعماري فى الجامع الكبير بالمساجد المرينية فى تلمسان وخاصة فى مدينة « العباد » حيث مدفن أبي مدين الغوث فعدد الصحون الطولية واحد فيهما مع ثمانية صحون موازية للقبلة هناك بدل سبعة بالرباط ومن مظاهر العتاقة فى الجامع الكبير ضخامة الاقواس المفصصة امام المحراب وهي من خواص المساجد المرابطية والموحدية بكيفية عامة مع وجودها أحيانا فى عهد المرينيين كما هو الحال فى جامع فاس الجديد . ولم يعد المهندس المعماري يستعمل هذا النوع من الترخيمات فى العصر العلوي وحتى بالنسبة لنقوش الحنايا يمكن التنظير بين المشبكات الهندسية فى الجامع الكبير ومثيلاتها فى منبر المدرسة العنانية بفاس وباب العنانية ايضا بمكناس ومع ذلك فان جامع الرباط لا يوحى فى مجموعه بنفس الارتسامة التي يشعر بها الزائر لمدارس فاس ومساجد تلمسان المرينية التي تمتاز بعدة ظواهر جزئية كبعض الاشكال الصنوبرية (على شكل ثمرة الصنوبر) او الزهيرات (أي زخارف نورية الشكل) تلك معالم تشهد بأن الجامع الكبير يرجع تاريخه الى العهد المريني وذلك بالاضافة الى بعض النصوص التاريخية التى تعزز هذه النظرية لا سيما وان مؤرخي العلويين مثل الضعيف والزياني والناصري لم يدمجوا هذا المسجد فى لائحة المساجد العلوية وربما كانت المجموعة المركبة من المسجد والسقاية والمارستان العزيزي هي نفس ذلك الثالوث الملحوظ فى جميع المساجد مع اعتبار ان هذا المارستان كان مدرسة كما يدل عليه شكله ، وهنا يجب ان نتساءل ـ كما فعل الاستاذ كايبي (ص 199)ـ عن تاريخ التعديلات والاضافات الطارئة على الجامع الكبير ويمكن ان نقارن بين هذه وبين المظاهر المعمارية فى جامع مولاي سليمان بالرباط ، وقد اسسه السلطان العلوي سليمان بن محمد بن عبد الله ، فالمنارتان متساويتان فى الاضلاع والترتيبات

(104) لا شك ان هذه التسمية ترجع لكون مصر هي التي عرفت فى العالم الاسلامي بكثرة طبقات دورها ؛ وقد ذكر المقريزي فى خططه ج 1 ص 334 و341 ان مساكن الفسطاط كانت من سبع طبقات .

الداخلية والنسق الفني واحد في السطوح والحزات الجدرانية التي تنصب منها مياه المطر بدل الميازيب وذلك علاوة على تشابه بعض الابواب ويدعم هذا الشبه الواضح ما اشار اليه محمد الضعيف من ان السلطان مولاي سليمان وجه من طنجة احد اعوانه لمخاطبة المعلم الحسن السوداني فيما يجب انجازه من أعمال في جامع الرباط (105) وهكذا يمكن التأكيد بأن الزيادات العلوية في هذا الجامع يرجع الفضل فيها الى الملك الصالح المولى سليمان الذي قام بهذه البادرة المثلى فوسع المسجد وجدد سطوحه .

وقد اقيمت الآن مكتبة مكان السقاية المرينية التي اسفرت الحفريات منذ نحو ربع قرن وجود كتابات تأسيسية في واجهتها وكانت طبقات من الكلس تغطيها منذ اجيال وقد امكن الكشف فيها عن اسم مؤسسها السلطان ابى فارس عبد العزيز بن علي بن عثمان المريني وبذلك يرجع تاريخ بنائها الى القرن الثامن الهجري ، ويبلغ طولها 26ر10 م وعلوها 62ر4 م وعمقها 75ر2 م ، وقد بنيت من الملاط المقوى المغطي بطلاء مع واجهة من الحجر المنحوت المتناسق الترتيب وثلاث حنايا مكسورة واربع اسطوانات تحمل اثنتان منهما هذه الاقواس الرائعة بواسطة تيجان مقربصة وتتراكب فقراتها الحجرية المستديرة في سبع او ثماني طبقات ويزدان الحوض بثلاث حنايا جدارية مشرعة كما تتحلى جبهة البناية بزخارف حول افريز منحوت يدعمه طنف وتتسلسل في شريطه المستطيل (34ر9 م طولا و 10ر1 م علوا) سبع عشرة طاقة معماة ورسوم تذكرنا بباب القصبة وقويسات منحرفة ومشبكات وتعرجات من الأقنثا Acanthe ذات الطابع الكورنتي الاغريقي) وخطوط دائرية قد نقشت فيها وردات تتفرع عنها اربع تويجات في تناسب يخلب الالباب ببساطته ولمعانه واتساق اجزائه الى جانب القوة والرشاقة .

ويقع المارستان العزيزي قبالة الجامع ويظهر انه من بناء السلطان المريني ابى فارس وانه كان مدرسة في الاول ثم احيل الى مارستان فنظارة احباس وهو بسيط في تصميمه تحيط بساحته من ثلاث جهات غرف مستطيلة وابهاء قد رفعت على سوار من حجر تعلوها تيجان محلاة بانعراجات « مؤقنثة » واقواس نصف دائرية ، اما الباب فانها حدوية الشكل قد قامت بجانبيها سويريتان تتصلان بطنف تحمله مساند بارزة وهذا الرسم لا يختلف كثيرا عن تصميمات المدارس المرينية ينقصه المسجد الصغير الذي يقام عادة في المدرسة الا ان تغييرات حديثة قد اضفت على هذا المارستان طابعا علويا بعيد الشبه بالسقاية المرينية المجاورة .

اما الحمام المعروف بالحمام الجديد والكائن بالحي المعروف بتحت الحمام فانه من مآثر ابي عنان المريني كما تشهد بذلك لوحة التحبيس الموجودة الآن بصحن الجامع الكبير والتى تحمل تاريخ 755 هـ وتشير الى ان ريع هذا « الحمام الجديد » ينفق على ضريح السلطان المقدس ابى الحسن المريني وعلى اطعام الفقراء المرابطين بشالة ، ويعتبر هذا الحمام اقدم حمام عرفته رباط الفتح، وتبلغ مساحته 85ر20م طولا في 75ر9 م عرضا ، كما يزدان بروائع معمارية من تيجان هرمية مقلوبة واقواس مكسورة وحذوية وقبة ذات ثماني رفارف Pans قد حملت على عقود ركنية في شكل نصف اقبية متصالبة الروافد ، وفي كل رفرف ثغرة ينفذ منها النور الى الغرفة ، وقد اصبح هذا التصميم عاديا في حمامات الرباط بما فيه من قاعة الاستراحة المتفتحة على الغرفة الباردة التي تفصلها عن القاعة الساخنة اخرى وسطى دافئة تتخلل الكل مخادع منعزلة للاستحمام الفردي وتسود القاعة الاخيرة حرارة تستمد بخارها من حوض ساخن، وقد سرت هذه الحرارة في مجموع الارض المبلطة بالرخام والقائمة على سويريات قصيرة مركبة فوق قويسات من الآجر ، ويشبه هذا الحمام في شكله حمام شالة الذي يرجع لنفس التاريخ وكذلك حمامات مرينية اخرى كحمام المخفية بفاس وحمام وجدة المقابل للجامع الكبير ، وتتسم الحمامات الاندلسية بنفس الطابع مما يعد مظهرا جديدا لوحدة الفن الاندلسي المغربي على ان هذا الترتيب لا يختلف عن التقسيمات الملحوظة في الحمامات الرومانية التي كانت تتوافر بوليلي وباناسا وثموسيدا واوبيدوم نوفوم وباقي المراكز العتيقة .

— ◆ —

وقد توافرت الحمامات ولكن على وتيرة وئيدة نظرا لكثرة ما اقيم منها في العصور السالفة حيث

(105) تاريخ الرباط للضعيف ص 531 .

كانت بفاس وحدها 293 وقد كتب بعض المؤرخين ابحاثا حول الحمامات المغربية منها حمامات وجدة وشالة والمخفية بفاس (كتاب الهندسة الاسلامية ص 315) والرباط (تاريخ الرباط لكابي) وقد بنى ابو عنان المريني هذا الحمام الاخير الذى ما زال معروفا الى الآن بحمام العلو مع توقيف ريعه لفائدة المسجد .

وهذه الحمامات لا تختلف عن المستحمات الموحدية الا بغرف فردية للتخلية وباضافة معالم جديدة فى الزينة من فسيفساء وزليجى بالبديع ونقوش على الخشب ونحت على الجبس .

اما المؤسسات العسكرية فانها عديدة منها باب المريسة بسلا (وهي دار صناعة وباب بحري فى هذه المدينة) وأسوار فاس الجديد وشالة والمنصورة (قرب تلمسان) .

وقد قام المرينيون بعدة اعمال تعميرية ذات صبغة عمومية مثل بناء المارستانات والملاجىء ودور الوضوء والسقايات وقناطر نقل الماء ، وقد سبق للمهندسين الاختصاصيين أن زودوا بعض الحواضر كالعاصمة الادريسية بالقنوات التي تنقل مياه وادي فاس الى مختلف الاحياء ثم حول الامير يعقوب المريني ماء عين عمير الى المدينة الجديدة التى اسسها بأرباض فاس وهي مدينة البيضاء او فاس الجديد ، وقد اقيمت مؤسسات من هذا القبيل فى العباد وشالة ، والرباط (106) وكان هؤلاء المهندسون اما اندلسيين واما صحراويين مثل الاختصاصي الذى استقدمه الامير من سجلماسة لبناء الخصة المرمرية بالقرويين .

— ◆ —

تلك هي المظاهر الجوهرية التي يمكن ان تستخلص منها صورة عن الفن المريني الذى بدات تتبلور فيه مجالي الازدواج بين الطابعين الاندلسي والمغربي فى شكل جديد سمي بالفن الاسباني الموريسكي
Art hispano-mauresque

وبالرغم عن التأثيرات الاندلسية التي وسمت هذا الفن فانه أصطبغ بسمة خاصة اذ عوضا عما كان يذكي المهندس الاندلسي من رغبة فى تحقيق التوازن بين القوى فى المعالم المعمارية هدف المهندس المغربي الى ضمان متانة الهيكل بالاضافة الى ما كان يشعر به من حاجة الى مزيد من الزخرفة والتنميق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الاسلامي من تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات علاوة على روعة الهندام ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري الذى بلغ فى العصر المريني اوج عنفوانه من أيفال فى التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الاجزاء وعدم جودة المواد فان المجموع ظل — كما يصفه المؤرخ اندري جوليان — واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الحيز الذى يملأه وهذا بالاضافة الى ما انطوت عليه الالوان من دقة وجناس كاملين (107) وقد اشيع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التى لا تضاهى وروعته الطريفة الاصيلة فكان فنا اندلسيا مغربيا تتناسق عناصره فى العدوتين .

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه الى نشاط المهندس الاندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا فى مجموع المآثر المعمارية (108) .

وكان للفنانين والمنتجين المغاربة صيت رائع وحظوة لا بأس بها حتى فى الشرق غير ان درجة النضج الذي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصر انهياره فقد استنفد كثيرا من قواه منذ عهد ابي الحسن وحال قيام الفتن دون تحقيق اعمال عمرانية كبرى بعد ذلك .

وقد حلل الاستاذ طيراس مظاهر المدنية المغربية فى عهد المرينيين (109) فابرز الصبغة الاندلسية والحضرية فى هذه المدنية التي بدات اساليبها

---

(106) منها السقاية المرينية قبالة الجامع الاعظم بالرباط
(107) تاريخ افريقيا الشمالية ص 456 .
(108) كان ذلك منذ المرابطين وقد لاحظ الناصري نقلا عن صاحب الجذوة ان المهندس الاشبيلي محمد ابن علي هو الذي رسم تصميم دار الصناعة البحرية بسلا واستعمل الاساليب المعروفة بالاندلس (الاستقصا ج 2 ص 11) كما ان نقل مياه وادي فاس لتزويد قصر يوسف بن يعقوب كان على يد مهندس اشبيلي اختصاصي فى علم الحيل هو محمد بن الحاج .
(109) تاريخ المغرب ج 2 ص 76 وما يليها .

ومناهجها تتحجر منذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادي فالحضارة لم يعد لها وجود الا فى الحواضر وخاصة بفاس لان مدينة مراكش التي فقدت مركزها كعاصمة صارت تنحدر فى طريق الافول محتفظة ببقايا التقاليد الموحدية .

واذا كان الفن قد استطاع الصمود فى نهاية العهد المريني فما ذلك الا بفضل العناصر الاندلسية التي هاجرت الى المغرب . بحيث اصبح المغاربة منذ عهد الوطاسيين عالة فى كثير من الفنون والحرف على الاندلس (110) ومع ذلك فان الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته النادرة رغما عن انعدام الفخامة فى مجاليه ذلك ان وفرة الزخرفة وثراءها وروعتها انتظمت فى اطار من الوضوح والدقة لا غبار عليه وكان المجهود الفني الذى بذله المرينيون تقلص ـ كما يقول طيراس ـ فى الوقت الذى انبهرت قوتهم العسكرية .

كيف تبلور الفن في العصور الأخيرة ؟

١) العصر السعدي

اتخذ تدخل السعديين صورة ثورية ضد عجز الوطاسيين عن ايقاف الحملة المسيحية وهبوب الاسبان لغزو المغرب بعد سقوط المعاقل العربية فى الاندلس وقد تم احتلال سبتة عام 818 هـ فثارت ثائرة الامة المغربية وطاف دعاة الجهاد فى القبائل يحدون الناس الى مقاومة المغير وقد تركزت هذه الحركة التحريرية حول مراكز اقليمية للتجمع وهي الزوايا واستغل الشرفاء السعديون الموقف فتزعموا هذه الفورة الشعبية ونصبوا انفسهم قوادا للثورة التى لم تنتظم الا بعد ان تمكن البرتغاليون من غزو كبريات المدن الساحلية التى احاطوها بأسوار عتيدة وجهزوها بحصون وابراج واقاموا فيها كنائس ومستودعات للماء (مطافيء) .

وقد عرف السعديون كيف يوجهون هذا الحماس الشعبي الرائع الذى كان يعززه العلماء والصوفية فاخرجوا العدو من اكادير وآسفي وازمور واصيلا والقصر الصغير وكللت سلسلة الانتصارات هذه بهزيمة شنعاء مني بها البرتغاليون فى معركة وادي المخازن التى فقدت البرتغال بعدها استقلالها السياسي طوال اثنتين وستين سنة واندرج المغرب بفضل انتصاره الفذ فى صف الدول العظمى تخطب وده بلاطات اوروبا وتسعى فى الحظوة بمعونته وتأييده (111) وقد اثرت الدولة بما درره عليها احتلال السودان وافتكاك الاسرى البرتغاليين فاتجهت نحو بناء مؤسسات معمارية كقصر البديع الذى وصفه اليفرني (112) ملاحظا ان السبب الذى حمل المنصور على انفاق جلائل الاموال ونفائس الذخائر لبناء البديع هو الحصول على مأثرة وشفوف على المرابطين والموحدين ومن بعدهم وقد استغرق العمل فيه المدة المتراوحة بين سنة 986 هـ و 1002 هـ ، وجلب السلطان الصناع الافرنج يجتمع كل يوم من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم حتى كان ببابه سوق عظيم كما جلب له الرخام من ايطاليا فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن وكان هذا القصر عبارة عن دار مربعة الشكل فى كل جهة منها قبة رائقة الهيئة تحتف بها مصانع من قباب وقصور ودور .. وفيها من الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحير الفكر وكل رخامة طلي راسها بالذهب الذائب وموه بالنضار الصافي وفرشت ارضه بالرخام العجيب النحت الصافى البشرة وجعل فى اضعاف ذلك الزليج المتنوع التلوين وتجسم فى سقوفه الذهب وطليت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبس وكان به اشعار مرموقة فى الاستار وابيات منقوشة فى الجهات على الخشب

---

(110) كردار ج 2 ص 461 .
(111) تاريخ المغرب ـ طيراس ج 2 ص 189
(112) مناهل الصفا (نقل الناصري فى الاستقصا ج 3 ص 65)

والزليج والجبس وقد هدم المولى اسماعيل هذا القصر عام 1119 هـ « ولم يبق بلد ـ كما يقول اليفرني ـ من بلاد المغرب الا دخله شيء من انقاض البديع » .

ومن المؤسسات الدينية السعدية مسجد باب دكالة الذى بنته مسعودة المزكيتية والدة المنصور ويتناسق فى هذا المسجد الاساوب المريني (الصحن المربع) مع بعض معالم الفن الموحدي مثل هندام القباب وبعد ذلك بخمس سنوات اسس جامع المواسين بمرافقه من قاعة الضوء والحمام والمدرسة والكتاب (أي المسيد) والسقاية ومورد الماء المخصص للحيوانات وتنم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السالفة فى الحقل المعماري .

اما فى جامع القرويين بفاس فان السعديين بنوا قبتين فى الصحن تتوسط كلتيهما خصة مرمرية شبيهة بما يوجد فى ساحة الاسود بالاندلس .

وقد اسهم السعديون فى بناء مدارس صغرى مضافة الى المساجد او الزوايا حيث توجد مثلا فى مراكش عاصمة السعديين أعظم مدرسة بالمغرب (113) يرجع فضل تجديد بنائها الى الامير مولاي عبد الله وهي مدرسة ابن يوسف التى تستمد اسمها من الجامع المجاور لها وقد بناها ابو الحسن المريني (114) وكان اهم مأوى لطلبة جامعة ابن يوسف حيث تحتوي على نحو المائة غرفة الا ان مصلحة الآثار تباشر الآن ترميمها لاحالتها الى مؤسسة اثرية حفاظا على روائعها الفنية وقد خصصت وزارة التربية الوطنية اعتمادات لاصلاح مثيلاتها من المدارس الاثرية المرينية بفاس .

اما قبور السعديين فانها اقيمت على غرار اضرحة المرينيين بساحة ـ قرب مسجد القصبة بمراكش لدفن امراء الاسرة المالكة .

ويلاحظ بخصوص المؤسسات العسكرية ان الانقلاب الذى طرأ على الاساليب الحربية تحت تاثير حركة النهضة الاوربية وانبثاق عهد الآلة وغزو المسيحيين للتراب المغربي كل ذلك حدا الدولة المغربية الى تعديل مناهج وطرق التعمير فالاسوار المحيطة بالمدن الكبرى تعزز بأبراج مجهزة بعتاد جديد لمقاومة المدفعية ومن جملة هذه المعاقل المجردة « باستيون » (أي حصن) تازة الذي بناه المنصور استجابة للحواجز العسكرية القاضية بتزويد ممر تازة الواصل بين الشرق والغرب ـ بالاجهزة الدفاعية المناسبة وهذا الحصن عبارة عن مؤسسة ضخمة مربعة الشكل يبلغ طول اضلاعها ستة وعشرين مترا وتطل منها على المدينة ثلاث عشرة غرفة للرماية كما تحتوي على مستودعات للعتاد وقد اقام المنصور كذلك بفاس (115) برجين آخرين يشرفان على المدينة وما زال البرج الجنوبي على حالته بينما ادخلت تعديلات على البرج الشمالي خلال القرون الاخيرة وتجدر الاشارة هنا الى ان السعديين اضافوا اجهزة قوية جديدة الى المعاقل والحصون البرتغالية فى المدن المحررة (اسفي وازمور والجديدة) كما بنوا فى طول البلاد وعرضها قناطر ـ ذات طابقين استراتيجي ونفعي ـ ومعابر لنقل المياه وسقايات عمومية على غرار سلفهم .

وقد لاحظ طيراس (116) انه بالرغم عن الجهود التى بذلها كبار الامراء السعديين فانهم لم يسهموا فى انبعاث الحضارة الاسلامية بالمغرب « ذلك ان المدنية والفن كانا متجهين نحو الماضي فلم تستطع بعض التأثيرات الاجنبية تعديل الاصول القديمة ولا تركيز بذور اختلاق جديد » فالفن المغربي اذن هو حسب طيراس « فن خال من كل غض تكتنفه رواسب الماضي» غير أن صلات عابرة وغير مباشرة بالفنون الاسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ما كان للسعديين من علاقة بالاتراك ولعل بعض هذه الآثار تتجلى فى فن الطرز والنسيج والتجليد والتذهيب وكذلك فى بعض أزياء الرجال لاسيما منها العسكرية نظرا لتأثر امراء سعديين مثل عبد المالك الذى عاش فى تركيا ببعض مجالي الحياة فى هذه البلاد .

---

(113) الهندسة المعمارية الاسلامية ص 392 .
(114) الاستقصا نقلا عن نزهة اليفرني ج 2 ص 56 .
(115) يظهر ان مدينة فاس اعيد بناؤها ايام السعديين ففى عام 1033 هـ انهارت معظم البنايات فقضي على الباقي لاعادة بناء الكل (نشر المثاني للقادري ص 149) .
(116) تاريخ المغرب ج 2 ص 234 .

ومهما يكن فان الفن المغربي الذى استنفد قواه أصبح يرزح تحت عناصر قوية فى النقش والزخرفة والتنميق فقدت بساطتها من جهة ولكنها ازدادت فخفخة ورواء من جهة اخرى (117) .

2) العصر العلوي

العلويون شرفاء حسنيون انحدروا الى المغرب من الجزيرة العربية واول من دخل منهم الى تافيلالت مولاي حسن بن قاسم اواخر المائة السابعة وقد قام محمد بن الشريف فى سجلماسة عام 1045 هـ فبايعه الناس نظرا لزهادته وتقواه وواصل كفاحه ضد بعض الاقاليم المستقلة وعندما استتب الامر للعلويين فى عهد مولاي الرشيد بدا هذا الامير يهتم بتجديد معالم الفن المريني والسعدي بتعزيز الاجهزة العسكرية ومتابعة بناء المعاهد والمدارس والمساجد وقد استطاع اقامة بعض المؤسسات رغم قصر امد امارته الملآى بالحروب ومن ذلك بناؤه عام 1075 هـ بالآجر والجير فى نهر سبو وعلى بعد اربعة كيلومترات من فاس لقنطرة طولها مائة وخمسون مترا مرفوعة على اعمدة تتخللها ثمانية اقواس (ثلاثة منها انما بناها سيدي محمد بن عبد الله ـ الناصري ـ ج 4 ص 121) ثم تقوية أسوار فاس البالي كما شرع عام 1081 هـ فى بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز ولا تخلو هندسة ونقوش هذه المدرسة من جمال الا أن معالمها بعيدة عما يتسم به الفن المريني من صفاء (118) .

واقوى أمير واعظم بناء فى الاسرة العلوية هو مولاي اسماعيل (119) الذى وجه عناية خاصة الى مكناس الا ان مقتضيات التهدئة اضطرته خلال عقدين من السنين الى الجولة فى اقصى الاقاليم التى جهزها بقلاع يبلغ عددها ستا وسبعين فى المغرب وشمال الاطلس (120) .

وفى مكناس التى اختارها مولاي اسماعيل عاصمة اقام قصورا فخمة داخل القصبة نفسها منها مدينة الرياض التى لم يبق منها سوى باب الخميس وقد سبق للموحدين ان جددوا بناء مكناسة المسماة بتكرارت (أي المحلة) ثم بنى المرينيون قصبتها علاوة على ما شيدوه بها من مساجد ومدارس وزوايا وربط وعندما اراد المولى اسماعيل بناء الرياض هدم ما يلي القصبة من الدور وبنى سورا على الجانب الغربي وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده فى القصبة القديمة ولم يبق امامه الا الفضاء فجعل ذلك كله فى قصبة وبنى سور المدينة وافردها عن القصبة جالبا الصناع لذلك من جميع حواضر المغرب وقبائله وكان قد سبق له أن اسس قصر النصر أيام اخيه مولاي رشيد (121) وقد وصف الناصري قصور مكناسة ومساجدها ومدارسها بانها « فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول » كما ذكر الزياني انه شاهد فى آثار الدول اعظم من آثار هذا الامير (122) ولا يخفى ما فى ذلك من ايغال بالرغم عما تنم عنه بعض الآثار الباقية من روعة الاصل (123).

---

(117) تاريخ المغرب ، كواساك دو شافر وبيير ، الفصل الخاص بالسعديين .

(118) تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جوليان ص490 وقد استعيض بهذه المدرسة عن مدرسة اللبادين وهي تحتوي على عدة غرف ذات نوافذ .

(119) الهندسة المعمارية الاسلامية فى الغرب ـ جورج مارسي ص 383 وقد وهم مارسي فذكر ان مولاي اسماعيل هو ولد مولاي رشيد .

(120) راجع كتابي حول مظاهر الحضارة بالعربية والتيارات الكبرى لحضارة المغرب بالفرنسية (ص 90) .

(121) الاستقصا ج 4 ص 3 .

(122) الاستقصا ج 4 ص 48 ـ 49 .

(123) فى عام 1145 هـ امر السلطان مولاي عبد الله بهدم مدينة الرياض (الزياني ـ الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) ترجمة هوداس ص 71

وتقوم الى الآن وسط بقايا هذه القصور الدار البيضاء التى بناها السلطان مولاي عبد الله والتى رممت واحيلت الى اكاديمية عسكرية وتوجد امام هذه الدار ساحة فسيحة كانت تجري فيها تدريبات الجيش واستعراضاته وكان السلطان يجلس مع حاشيته اثناء حفلات الاستعراض او استقبال القواد والولاة داخل رواق جميل (124) مرتفع ومتفتح فى احدى زوايا هذا القصر .

وفى مراكش اقيمت دار المخزن بساحتها المغروسة المعروفة بعرصة النيل ومنازهها وقبتها الكبرى المدعوة الستينية ومساكنها واروقتها العديدة ومسجدها مع مختلف ملحقاتها المحادية لقصر البديع .

والباهية دار الوزير باحماد من اجمل واروع قصور عاصمة الجنوب .

ومن المساجد التى يرجع تاريخها الى العهد العلوي مسجد لالة عودة الواقع داخل القصر الملكي بمكناس وقد فتحت بالقرب من المحراب باب تتصل بممر مستطيل يؤدي الى القصر الملكي ومن هذه الخوخة كان السلطان يدخل بعد اداء فروضه الى الستينية التى تقطنها الآن اسرة مولاي عبد الرحمن ابن زيدان مؤرخ الدولة العلوية ونقيبها سابقا وتقوم بجوار هذا المسجد مدرسة ومراحيض جددت الاوقاف معالمها بعهد الاستقلال .

وتدين العاصمة الاسماعيلية للمولى محمد بن عبد الله بأعظم جوامعها وهو جامع الروى الذي اكد مارسي أن مظاهر روعته وجماله تتجلى فى تناسب صحونه وبساحته وبتصميمه الذى عولجت فيه العناصر التقليدية بروح اجنبية عن الفن الاسلامي وبانعدام اي ممشى وبتناسق اجزاء الصحن الخارجي الذى لا يحيط به اي رواق ثم وضعية الابواب وتوزيعها الخاص المنافيين للمعهود فى خوخ المساجد المغربية مما يدل فى نظر المؤرخ الفرنسي على استعانة السلطان بمهندس اوربي لتخطيط هذه البناية .

وفى فاس الجديد يوجد المسجد الذى بناه مولاي عبد الله نجل المولى اسماعيل اما مسجد باب الكيسة (باب عجيسة من ابواب فاس البالي) فهو حديث العهد وقد ادخلت عليه اصلاحات فى السنوات الاخيرة .

وتشتمل جميع هذه المساجد العلوية على صحون ـ قليلة العدد ـ تخترق المسجد على نسق ما عوهد فى فاس منذ ازيد من احد عشر قرنا باستثناء الفترة المرينية . اما فى الرباط فان جامع السنة الواقع خارج مشور تواركة من بناء سيدي محمد ابن عبد الله الذى اوصل الناصري الى نحو السبعين عدد منجزاته المعمارية ما بين منشأ ومجدد فى كثير من مدن المغرب علاوة على الصقائل والابراج والحمامات والاسواق والاضرحة والمدن (انفا وفضالة والمنصورية والصويرة (125) .

وقد تجدد جامع السنة اواخر القرن الماضي ثم فى السنين الاخيرة وكان يحتوي على ساحة تحتل المقام الاول ـ مع ساحة صحن الجامع الاكبر بسلا ـ بين مساجد المغرب وتقوم فى جانبها الموازي للقبلة ست عشرة غرفة كان يسكنها الطلبة الافريقيون ويشبه هذا المسجد فى معالمه المعمارية الخاصة مسجد لالة عودة بمكناس وقد تجدد بناؤه فاصبح اروع المساجد وابهاها فى المغرب .

اما فى الهندسة العسكرية فان العلويين ساروا على غرار سلفهم السعديين فالمولى اسماعيل اعظم من اقام القلاع والحصون وتنقسم القصبات التى اسسها الى ثلاثة انواع تبعا للمراد منها حسب المؤرخ طيراس (126) فهنالك نقط محصنة حول القبائل المتمردة وسلسلة من القلاع فى تادلة واعلى الملوية لصد قبائل الاطلس ثم سلسلة ثالثة من القلاع اسست على طول الطرق الكبرى الممتدة بين تازة وتارودانت وقد توفرت كل حامية على جمهرة من

(124) جورج مارسي ـ الهندسة المعمارية ص 397 .
(125) الاستقصا ج 4 ص 121 .
(126) تاريخ المغرب ج 2 ص 358

الفرسان تتراوح افرادها بين اربعمائة وثلاثة آلاف رجل (127) .

ومن جملة القلاع المهمة التي ما زالت قائمة الى الآن قلعة ادخسان في الشعاب الشمالية للاطلس واكوراي (وهي التى احتفظت اكثر من غيرها بهندامها الاصلي) التى تراقب الاطلس الاوسط وقلاع تادلا وحميدوش (على مسافة ثلاثين كم من آسفي) وبو الاعوان (على بعد 60 كلم من أزمور) ومديونة (على مسافة 20 كم من الدار البيضاء).

وكانت كل قصبة مسورة ومجهزة بأبراج مربعة الشكل او مستطيلة في احد جوانبها وتتضمن مسكن القائد والمسجد ومستودع المؤن والغالب ان القلعة لم يكن لها اكثر من سور واحد عدا قلعتي حميدوش وتادلة اللتين كانت لهما حظيرة مزدوجة .

وقد جهزت المدن كذلك بالصقائل والحصون (128) وانتشرت القلاع على ساحل المحيط الاطلنطيقي بفضالة (المحمدية الآن) والبيضاء والعرائش وطنجة والصويرة وبالاخص الرباط حيث تشرف اعظم واروع قصبة (قصبة الأوداية) على مصب ابي رقراق وتوجد بهذه المدينة ابراج ثلاثة اخرى هي برج الصراط وبرج صقالة (من بناء المهندس احمد الانجليزي في سنتي 1755 و 1776 م) في عهد سيدي محمد بن عبد الله وبرج الدار الحديث العهد (عام 1824 م) (129)

ومن بين العمارات الاستراتيجية العلوية القنطرة فوق نهر سبو على مسافة اربعة كيلومترات من فاس (وهي من بناء مولاي الرشيد) وقنطرة أم الربيع (بنيت ايام مولاي اسماعيل) والتى لا يقل طولها عن طول القنطرة الرشيدية مع عشرة اقواس من الحجر .

اما الدار المغربية فانها احتفظت بتصميمها وهندامها المعماري اللذين اصبحا المظهر التقليدي منذ نهاية العهد المريني اي منذ نحو من خمسة قرون فالباحة الداخلية التى تتصل بالخارج عن طريق ممر منعرج ـ يتناسب مع لوازم الحجاب العرفية ـ محاطة بأروقة مسقفة مستطيلة تتفتح فيها غرف ذات ابواب ضخمة تعلوها شماسات مفرغة وتقوم على جانبها نافذتان متوازيتان وفي احد جوانب « وسط الدار » يوجد بهو منمق الجدران كباقي اجزاء المنزل علاوة على سقاية تواجه البهو احيانا او فسقية فوارة .

ويرى المؤرخ جورج مارسي ان الدور المغربية تتسم بمياسم ثلاثة او ترجع الى ثلاث مدارس :

1) مدرسة الرباط وسلا ومدن الساحل

2) مدرسة مكناس وفاس

3) مدرسة مراكش ومدن او قرى الجنوب

فالتصميمات واحدة في هذه المدارس وانما يختلف الهيكل العام ومعالم الزينة تبعا لهذه الاقاليم فالاسلوب الموحدي يغلب وجوده في المدن ذات الطابع الاندلسي حيث تحيط مثلا الحنايا الحجرية بساحة الدار الوسطى (130) وهذه الطريقة الهندسية مقتبسة من الاندلس .

---

(127) ذكر الزياني في الترجمان (ترجمة هوداس ص 35) ان عدد فرسان كل قلعة كان يبلغ مائة على راسهم قائد مسؤول عما يقع في اقليمه من احداث وكان في قلعة باب الخميس حامية تتركب من خمسمائة فارس من شراكة كلفوا بالسهر على الامن في الطريق الواقعة بين السايس والمهدومة (وادي المهدومة من فروع سبو)

(128) كان عدد المدن في العهد العلوي مائتين وخمسين مدينة لا تحتوي اصغرها على اقل من ثلاثين الفا من السكان وكان بفاس ستة عشر مائة الف نسمة (اسماعيل الاكبر امبراطور المغرب ـ دوفونطان ماكسانج ص 14) هذا بينما كان عدد كبريات الحواضر في الاندلس يبلغ العشرين حسب ابن سعيد والمدن الوسطى ثلاثمائة مع عدد ضخم لا يحصى من المراكز الصغرى من بينها اثنا عشر الفا على ضفتي الوادي الكبير وحده (نفح الطيب ج 1 ص 106) .

(129) تويريخ الرباط لكايي ص 30 .

(130) هذا الاسلوب يغلب حتى بفاس التى يسود دورها الطابع المريني وتلاحظ كذلك تاثيرات اوربية في هذه المدن اذ لا ننسى مثلا ان السويد والدانمارك كانتا تمدان السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمهندسين وصناع في فن البناء (كودار ج 2 ص 564)

وفى بعض المدن كفاس حيث تسيطر التقاليد المرينية تحتوي الدار على طبقتين او طبقات تتوفر فيها مظاهر الزخرفة بينما يتبسط هذا الاسلوب فى مدن الشمال الاخرى كوازان وتازة (باستثناء تطوان الاندلسية الهندام)

وسواء فى الجنوب ام فى الشمال فان الطوب والآجر يتعارضان مع الاحجار غير المنحوتة والمكلسة فى الرباط وسلا ويتجلى ذلك فى نصاعة البياض فى هذين المدينتين بالنسبة لمراكش الحمراء غير ان معظم الدور الكبرى كانت تحتوي على روض يشغل جناحا خاصا بأروقته وغرفه وظلت بعض المدن متمسكة بهذه التقاليد الرومانية او الاندلسية ففى تطوان مثلا يملك الاثرياء مصطافات « وجنانات » لقضاء حقبة من فصلي الصيف او الربيع ولم تكن اثمان العقارات مرتفعة بالبادية فالهكتار الواحد من الحدائق المفروسة كان يساوي آخر القرن الماضي بطنجة مائتي فرنك بينما كانت قيمة الفدادين (من 7 و 8 هكتارات) لا تزيد على مائة فرنك اما فى الداخل فكان فى وسع المرء ان يصبح ملاكا بمائتي او ثلاثمائة فرنك (131) . وقد تجلى ذوق الملوك فى غراسات بعض الضيع كالمنارة بمراكش ولالة مينة بفاس وجمرية بمكناس واكدال بالرباط .

ويعيش المغرب الآن عالة على روائع الماضي فكبريات المدن فقدت كثيرا من مظاهرها الفنية الكلاسيكية ومدينة فاس التى كانت تنافس حاضرة بغداد قد تهدم الكثير من آثارها وقد وصف كامبو هذه المعالم عام 1886 م فلاحظ فى نغمة المتشائم ان الحالة المادية بالمغرب لا تزال على ما كانت عليه فى القرن الثالث عشر الميلادي مع انحلال فى عناصرها اذ كل شيء بال عتيق منخور فى معظمه لانعدام اي اصلاح (133) الا ان مصلحة الآثار تبذل الآن جهودا لترميم المآثر التاريخية التى يهددها الحدثان مع محاولة الاحتفاظ بالاساليب الكلاسيكية فى الفن المغربي بالاضافة الى حركة التجديد التى تساير التطور العالمي وقد لخص الاستاذ طيراس مجالي الفن الاندلسي المغربي فى العهد العلوي بعد مرور أربعة قرون على سقوط غرناطة فلاحظ ان الاشكال والرسوم المعمارية تحجرت لاسيما فى المساجد الكبرى والقصور حيث تطبعها الآن « وحدة قوية » اما فى الدور والاضرحة والمساجد الصغرى فالملحوظ هو وجود اتجاهات اخرى لا يتردد طيراس فى اعتبارها « مدارس حقيقية » ويلوح لي أن الامر لا يعدو نوعا من التحجر المحلي بحيث تبلورت بعض الاساليب الكلاسيكية الغالبة فى هذا الاقليم او ذاك بنوع من التبادل بين الجهات المختلفة لم ينصهر على اثره الفن فى بوتقة واحدة فقد استمرت التقاليد المرينية بفاس (وكذلك فى مكناس رغم الفترة الانتقالية العابرة ايام مولاي اسماعيل) وهكذا فالمسحة بل الشكلية الموحدية (الحجر بدل الآجر مثلا) المسيطرة بالرباط مدينة المنصور وبمراكش عاصمة بني عبد المومن لا تسمح لنا بالحديث عن مدارس معمارية مختلفة فضلا عن وجود انفصام بين الاتجاهات الفنية التى ترجع فى نظري الى عوامل اجتماعية تاريخية هي نفسها مستديمة التقلب ولعل هذا هو الذى يفسر لنا مظهر التجانس بين اجزاء الهيكل المعماري انعام فى حواضر المغرب فالدور الانيقة لا يختلف كثيرا بعضها عن بعض من حيث الشكل واسلوب الزخرفة ذلك ان وفرة الجزئيات والزخارف المرينية من جهة وبساطة نقوش المآثر الموحدية مع صفائها وفخامتها من جهة اخرى لم يعد لهما حيز اقليمي خاص لاسيما فى العصور الاخيرة حيث تحقق بين الحواضر الكبرى (كفاس والرباط ومراكش) تداخل عميق اسفر عن وجهات متساوقة وحيوية فياضة هي فى نظري سر هذا الطابع العام الموسوم بالوحدة ولكن هذه البوتقة لا تلبث ان تصبح وعاء لانصهار العناصر المختلفة فى فن جديد تتسق فيه معطيات العصور وتنبثق عن مزيج كلاسيكي وعصري

فهل من مصلحة هذه المعالم ان تتحد ؟ ام ان سر جاذبيتها كامن فى اختلاف معالمها ؟ ام ان استمرار اصالتها لابد ان يرتكز على نوع من الامتزاج ؟

الواقع أن الهندسة والاساليب المهنية البربرية العتيقة التى يظهر انها تحجرت فى البادية والجبال يجب ان تنتعش بمعطيات الفن فى الحواضر ولكن دون مساس باصالتها ويجب ان ينبثق كل تجديد عن حاسة عريقة بالجمال وشعور تلقائي بدافع التكيف

(131) كودار ج 1 ص 190) .
(132) حضارة العرب ـ كوستاف لوبون ص 263 (الطبعة الفرنسية)
(133) كتاب «مملكة تنهار او المغرب الحديث» ص19 .

لا تذوب معه الخواص الجهوية التى هي اسس كل اصالة .

ولنضرب مثلا بروعة المآثر العلوية فى حاضرة المغرب السياسية : رباط الفتح ، فقد دشن المولى اسماعيل الانطلاقة المعمارية الرائعة باقامة مدينة الرياض بمكناس التى بلغ طول اسوارها اربعين كيلومترا واحتوت على قصور فخمة ومخازن واهراء واسطبلات ومساجد وقد شبهها البعض بمدينة فرساي الفرنسية من حيث الضخامة والروعة .

ويظهر ان اهتمام كل من مولاي رشيد ومولاي اسماعيل انصب خاصة فى الفترة العسكرية الاولى على قصبة الاوداية التى لم تكن لتخفى عليهما قيمتها الاستراتيجية فقد وسع المولى الرشيد هذه القلعة باقامة السور المحيط بحديقة متحف الاوداية على طول مساحة سوق الغزل كما ادخل تعديلات على البرج الشرقي للقصبة وبنى قصرا جديدا سمي بعد بالقشلة (اي الثكنة العسكرية) وهو السجن الحالي يصله بالقصبة جدار كبير (134) حسب مويت Mouette الذى لاحظ ان هذا الجدار الذى كان يدعمه برجان اثنان قد اقيم على حنايا بينما أوضح القنصل الفرنسي شينيي (135) Chénier ان هذا الجدار كان عبارة عن طريق مغطاة ويظهر ان الوضع الذى شاهده القنصل الفرنسي راجع الى تعديلات لاحقة طرات على هذا الممر .

اما السلطان مولاي اسماعيل فان اهتمامه ببناء القلاع والحصون فى طول المغرب وعرضه قد حداه الى مزيد من العناية بقصبة الاوداية لاسيما وان استمرار القرصنة جعل من هذه مركزا بحريا من اهم المراكز الاستراتيجية ومعلوم ان هذا السلطان تنازل عن الحقوق الملكية فى نهر ابي رقراق واوقف اريباع صيد الشابل على مساجد العدوتين كما رمم جوانب من سور القصبة وجدد ـ حسب مويت ـ بناء بعض الابراج المطلة على الوادي ، واقام البناية التى تضم الآن المتحف والتى قيل عنها انها كانت مدرسة .

وقد ترك لنا رحالون غربيون تواردوا على المغرب فى القرون الاخيرة صورا وخرائط وتصميمات عدلنا عن الاستناد اليها لتناقضها مقتصرين على بعض النصوص التاريخية القائلة مثلا بأن المراكب المسيحية كانت تلقي مرساتها تجاه القلعة التي كانت ترابط بهافي العهد الرشيدي حامية مؤلفة من ثلاثمائة جندي اضيف اليهم العبيد ايام المولى اسماعيل الذى اكتفى بهم فى آخر الامر وكانت القصبة آنذاك تصوب فوهات مدافعها الى رباط الاندلسيين كما توجه بطارياتها تجاه البحر لصد غارات المراكب الاوربية على أن القصبة نفسها كانت تخضع لمراقبة قصر مولاي رشيد الجديد المشرف عليها ، وكانت باب من خشب تقفل المدخل الاساسي للقصبة التى توافرت فى جنباتها المساكن والاصطبلات والمخازن حول القصر الموحدي المقابل للجامع العتيق بسراديبه المشحونة بالعتاد بمنأى من قنابل العدو فكانت القصبة كناية عن حاضرة صغيرة ينعقد تحت جدرانها سوق النخاسة للاسرى .

وعند انبثاق عهد السلطان محمد بن عبد الله دعت الحاجة الى تنظيم الادارة وتعزيز الثغور وتجديد الاسطول وتشجيع القرصنة والتجارة فأسهمت حاضرة الرباط بحظ وافر فى هذه البادرات وكان السلطان يتوفر ـ حسب شينيي (136) ـ على ستين مهراسا ومائتين من المدافع معظمها فى الرباط والصويرة وهو عدد ضخم بالنسبة للعصر ، وقد قام السلطان بدعم القصبة من جديد وترميم ما تهدم منها وبناء برج كبير يسمى صقالة على يد احد الاعلاج الانجليز معززا ببطاريات تحرس الساحل على طول المسبح وبرج الصراط والفي الممر المغطى بين القصبة والقصر الجديد ، كما هدم القصر الموحدي الذى احتفظ الى ذلك العهد بجميع مقومات الراحة وكان السلطان قد اسس خزينة (بيت المال) لاداء اجور الجند فى

---

(134) مذكرات الأسر (ص 19)
Relation de la captivité de sieur Mouette dans les Royaumes de Fès et de Maroc, Paris 1683 p. 19.

(135)
Recherches historiques sur les Maures et Histoire de l'Empire du Maroc, 3 vol. Paris, 1787 (T. 3, p. 27-359).

(136) نفس المصدر ج 3 ص 237 .

جميع مراسي المحيط الاطلنطيكي ، وكانت خزينة الرباط قائمة فى غرف باب القصبة ويظهر ان الباب الثانية للقصبة اسست فى هذه الفترة لان الخطر اصبح محصورا فى جهة البحر حيث ازدهرت القرصنة ضد اساطيل العدو .

وقد عمل السلطان سيدي محمد على اقامة صرح مدينة جديدة فى اكدال بالمشور الحالي واسس دار المخزن وجامع السنة وجامع أهل فاس وهو اول عمل معماري عرفته الرباط منذ يعقوب المنصور الا ان الحاضرة العلوية تجاوزت آنذاك السور الاندلسي واستحالت الى حضرة سلطانية وقد اكد الناصري فى الاستقصا ان اكدال ازدان آنذاك بستة مساجد علاوة على جامعي السنة واهل فاس الا ان المدينة ما لبثت ان فقدت من قيمتها فى عهد مولاي اليزيد ، وقد عمل السلطان المولى سليمان على توسيع معالم المدينة ببناء قصر القبيبات « دار البحر » (الذى يوجد فيه الآن المستشفى العسكري) وجامع مولاي سليمان (بين البويبة والسويقة) وجامع الجزارين (بشارع القناصل) وجامع القبة (بحمام العلو) وجدد باب شالة فى السور الاندلسي وكذلك باب الحد بينما اهمل القصبة كل الاهمال ومع ذلك فقد اصبحت الرباط مثل فاس ومكناس حضرة من حضرات السلطنة لاسيما فى ايام المولى عبد الرحمن الذى أصبح قناصلة الدول يقدمون له بالرباط أوراق اعتمادهم الا ان هذا السلطان لم يضف الى المدينة مآثر جديدة اذا استثنينا جامع سيدي فاتح وبعض الابراج والدور الجميلة وسط جنان وحدائق غناء زرعت خارج السور ؛ وقد اصبح الملوك العلويون المتأخرون وخاصة سيدي محمد بن عبد الرحمن والحسن الاول يواصلون المقام بالرباط، وقام السلطان محمد الرابع بتغيير وجه جانب من الحاضرة بما احدثه من بنايات اهمها القصر الجديد فى اكدال على انقاض القديم وهو القصر الملكي الحالي مع سور المشور المحيط بتواركة (اي ساحة البلاط السلطاني) علاوة على تجديد معالم جامعي السنة واهل فاس وايصال قنوات عين غبولة الى دار المخزن على قناطر معلقة لم تعد مستعملة منذ عقود من السنين وبذلك احيى محمد الرابع الحضرة السلطانية التى اسسها خلفه الكريم محمد الثالث ، وقد صادفت بيعة الحسن الاول تأجج أطماع الاوربيين ودسائسهم بالاضافة الى مخلفات ورواسب حربي ايسلي وتطوان فاتجه الملك الشجاع الذي كان عرشه على صهوة جواده الى تعزيز الامن والنظام ودعم الثغور مع العمل على ترميم ما لحقه الخلل من مؤسسات الرباط وخاصة الجامع الكبير وقصري اكدال والقبيبات ولم يكد يبزغ فجر القرن العشرين حتى اصبحت الرباط مدينة حضرية ببورجوازيتها الثرية وتقاليدها التي اضفى عليها جوار القصر الملكي طابعا من الروعة والمهابة بالاضافة الى ما تستلزمه جودة المناخ من رغد وازدهار حديا الجالية الاوربية الى الاستيطان على ضفاف ابي رقراق وخلق نوع جديد من التبادل الفكري والحضاري الذي تبلور مع الزمان فى اروع مظاهره حتى قال بعض المؤرخين الاجانب أن الرباط أمست « مفتاح المغرب » (137)

اما السور الرشيدي فانه يحاديه حديقة الاوداية وساحة سوق الغزل على طول 131،6 م وقد اسسه بأمر من مولاي الرشيد قائد العدوتين احمد الريفي ضمن مجموع مسدس الزوايا والاضلاع يضم المتحف والحديقة وتخترقه اربعة ابواب معززة ببرجين من الطابية ومن مميزات هذه الابراج الرشيدية التى خالف فيها شكلية التحصينات الاندلسية المغربية ان ما يسمى بالسجف او البدنة (وهو جدار الحصن القائم بين برجين) بارز بالنسبة للسور ظاهرا وباطنا اي سواء من جهة الساحة أم الحديقة وقد نقشت على جانب من البرج خمسة رسوم تمثل المراكب بصواريها واشرعتها ومجاذيفها الاثني عشر فى كلتا الجهتين وهذه النقوش اشبه بالرسوم المنحوتة على ابواب السور الموحدي بالرباط او فى شالة ومهدية وباب المريسة (بسلا) وحصن تازا ومكناس وزرهون .

ويقع المتحف فى الجهة الغربية من الحديقة ، وقد اسس فى عهد مولاي اسماعيل (كما تشهد بذلك الكتابة المنقوشة على الخشب فى ساحة المتحف (138) وتزدان خزانته بنسخة من القرآن

(137) Archives du Protectorat - Consulat général de France à Tanger (« Dépêche », 1887)

(138) يقول مؤرخ سلا محمد بن محمد بن علي الدكالي ان نجل السلطان مولاي احمد الذهبي سكن فى المتحف عندما كان ينوب عن والده فى العدوتين .

كان قد حلى تجليدها بتمويهات الذهب الخليفة الموحدي عمر المرتضى عندما كان واليا على القصبة قبل اعتلائه العرش ويحتوي المتحف على ساحة مركزية على غرار ساحات الدور الكبرى وغرف مستطيلة تمتد على الجوانب الاربعة مع مخادع صغرى وبرج فى الركن الجنوبي من خمس طبقات وثلاث ملحقات وهي مسجد وحمام (139) وقاعات صغرى وتسند الابهاء الاربعة خمس حنايا بأقواسها المكسورة والحدوية وقد اطلق اسم مدرسة على هذا المتحف فى آخر عهد الحسن الاول الا ان تصميمها لا ينطوي على بيوت للطلبة اذا اعتبرنا ان المدرسة كانت منذ العصور الاولى عبارة عن حي جامعي مصغر اللهم الا اذا كان ملوكنا الامجاد قد استغلوا قرب هذه البناية من المرسى لاحالتها الى معهد للملاحة (140) بعد ان كانت مجرد دار ملكية للسكنى محاطة بحديقة ومسجد وحمام .

وكان السور العلوي الخارجي ينطلق من شاطيء المحيط الاطلنطيقي فى نقطة تبعد بالف وستمائة متر فى الطرف الشمالي للسور الموحدي وينقسم هذا السور الى شقين يبلغ طول احدهما 200 3 م ويصل الى اكدال بعد مايقطع شارع تمارة وشارع النصر الى باب مراكش التى ما زالت قائمة الى الآن بالقرب من السكك الحديدية (خلف حديقة التجارب) اما الشق الثاني فانه يتصل مباشرة بالسور الموحدي ويبلغ طوله الفا ومائة متر ، وقد فتحت فى السور اربعة ابواب (باب القبيبات فى جهة البحر (أو باب الدار أيضا) وباب تمارة فى الشارع الذى يحمل هذا الاسم او باب تامسنا ، وباب مراكش (او باب الجديد او باب المجاز أو باب العدير البراني) وباب المصلى (لقربها من المصلى الحالي) وهكذا يمكن القول بأن السور العلوي بلغ طوله أربعة كيلومترات وثلاثمائة متر وكانت المساحة التي تفصل المحيط عن الصور الموحدي اربعمائة وواحدا وعشرين هكتارا بينما كان مجموع المساحة ـ بادراج المدينة العتيقة ـ يزيد على ثمانمائة واربعين هكتارا اي الضعف ولا نعرف بالضبط تاريخ بناء هذا السور نظرا لسكوت المصادر المغربية ككتب الزياني والضعيف والناصري عن ذلك عدا مؤرخ سلا الفقيه ابن علي الدكالي الذى ذكر أن بانيه هو السلطان محمد الرابع (141) وقد هدم هذا السور أبان الحماية لتسهيل عمارة المدينة الاوربية ويظهر ان هذا السور لم يكن يحتوي على طريق معلقة ولا على ثغرات للرماية .

وهنالك بنايات اقامها الملوك العلويون الامجاد فى السور الموحدي مثل برج لالة قضية قرب باب البحر التى كانت الفنك (المراكب) تنقل اليها الناس من سلا الى الرباط عندما كان ماء النهر يبلغ فى مده هذا الجدار العلوي الا ان ارصفة جديدة اسست منذ نصف قرن فصارت تحجز مياه الوادي وقد اقيمت عليها مخازن الديوانة واماكن لارساء السفن الصغرى ومستودعات ملاحية مختلفة .

المشور : ويشكل المشور (أي ساحة القصر الملكي) مربعا تبلغ مساحته تسعة واربعين هكتارا وهو يحتوي الآن بالاضافة الى القصر الملكي المذكور على ضريح الحسن الاول الذي يضم جدث السلطان سيدي محمد بن عبد الله قدس الله روحه وجثمان جلالة الملك المرحوم محمد بن يوسف (الذى نقل الآن الى حسان)، كما يضم جامع اهل فاس والمجلس الاعلى للقضاء (الذي كان معهدا تلقى فيه جلالة الحسن الثاني نصره الله دروسه فى السلكين الابتدائي والثانوي قبل الالتحاق بالعالي) ووزارة الدفاع ووزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية وملعب الفروسية والمطبعة الملكية ومساكن الحرس الملكي التى احيلت الى دور عصرية بعد ان كانت عبارة عن « نوايل » او اخصاص قصديرية واصبح المشور فى هندامه الجديد بحدائقه الغناء وفواراته النافورية واضوائه اللماعة وارصفته المبلطة صورة حية للمجهود الذى بذله العرش المغربي بعد الاستقلال فى مجالات التخطيط والعمران .

---

(139) الحق بالمتحف عام 1941 .

(140) اشارت الى ذلك مصادر اجنبية وخاصة كتاب «الرباط وناحيته» الذى نشرته البعثة العلمية الفرنسية فى اربعة مجلدات عام 1918 بباريس (ج 1 ص 151) .

(141) يلاحظ كايبي فى تاريخ الرباط ان ذلك غلط لان سيدي محمد بن عبد الرحمن هذا لم يعتل العرش الا عام 1859 م فى حين ان Beaumier نائب قنصل فرنسا بالرباط تحدث منذ عام 1856 عما سماه بالسور الثاني للرباط ولعل كايبي واهم فى ذلك على ما يلوح لنا لانه ربما كان المقصود بالسور الثاني هو سور الاندلسيين وهو اقرب الى الاحتمال .

وينطبق سور المشور غربا وجنوبا على السور الموحدي بينما اضيفت لاستكمال تربيعه الجانبان الشمالي والشرقي وقد بنيت البابان الاساسيتان في العهد المحمدي وصارتا تحملان اسم « باب السفراء » و « باب القيادة العليا » وتدل الكتابات المنقوشة عليهما أن احداهما من بناء السلطان مولاي عبد الرحمن (عام 1283) والاخرى من بناء ولده محمد الرابع مما يدل على ان السور يرجع عهده الى هذا التاريخ . ويبلغ طوله 1373 م كما تزدان ابوابه بحنايا مشرعة رائعة بنواتئها الخفيفة وعقودها الركنية ومصاريعها الخشبية الثقيلة وتحصيناتها .

اما التجديدات والترميمات التي قام بها الملوك العلويون بالنسبة للسور الاندلسي فانها مستوحاة من تطور الحاجيات ولوازم الحضارة فمن ذلك باب تسمى « تقويسة الراعي » (كانت بجانب المجزرة التي يحمل اليها الرعاة الغنم والبقر) التي تحمل كتابات يرجع صنعها الى السلطان محمد بن عبد الله عام 1193 بينما توجد باب اخرى متصلة بشارع الجزاء تعرف بتقويسة الطرافة (اي باب الاسكافيين او مصلحي الاحذية) وتدل الكتابات المنقوشة عليها انها جددت في عهد السلطان مولاي عبد العزيز عام 1315 هـ أما باب شالة المؤدية الى الجامع الكبير (تسمى ايضا باب سيدي علي بورحى وهو الولي المدفون بلزائها) فقد جددها المولى سليمان في 16 جمادى الثانية عام 1228 (كما في النقش) (142).

وكانت مدينة الرباط تضم بين جنباتها ازيد من خمسين مسجدا وزاوية في أوائل هذا القرن ، وقد اسس معظمها في العهد العلوي اهمها جامع السنة وجامع اهل فاس وجامع اهل سوس وجامع اهل مراكش وكلها من بناء السلطان الامجد محمد بن عبد الله علاوة على ستة مساجد أخرى تهدمت مع ما تهدم في اكدال (143) وسنستعرض على التوالي المظاهر المعمارية في ثلاثة من هذه المساجد هي جامع السنة وجامع اهل فاس وجامع ملين .

اما جامع السنة فقد اقيم بالجامع الغربي والطرف الشمالي الخارجي لمشور توارکة قرب ليسي مولاي يوسف الحالي وقد اكد الضعيف ان بناءه تم في جمادى 1199 هـ (مارس 1785 م) على يد الملك الهمام محمد بن عبد الله الذي انفق عليه اموالا طائلة ، ويظهر انه ظل منذ تأسيسه نحوا من عشرين سنة خاليا لبعده عن المدينة وقلة السكان حوله مما حدا السلطان مولاي سليمان الى نقل اخشاب سطوحه لتسقيف جامع علي ابن يوسف الذي انمحت آثاره الآن بمراكش (144) وكان بجانب المدرسة التي تحمل نفس الاسم ، وقد قام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بتجديد بناء جامع السنة الذي اصبحت الصلوات الخمس تقام فيه بانتظام مع خطب الجمعة وذلك بعد ما بادر الى زيادة تعمير حي توارکة بعبيد البخاري واهل سوس ثم اقامة دار المخزن والمشور السعيد ولم تزد الترميمات الجديدة على دعم صحون الصلاة بروافد خارجية دون تعديل التخطيط الاصلي للجامع مع اضافة جناح وباب جديدين خلف المقصورة وربما ايضا دار للوضوء قرب الصومعة ومخدع مستطيل وراء المحراب يرجع تاريخه الى عهد السلطان مولاي عبد العزيز (1325 ـ 1907) . واول ما يبده الزائر لجامع السنة مساحته الشاسعة وتناسق أجزائه وبساطته ، واذا اعتبرنا تخطيطه الاصلي فان المساحة تكون عبارة عن مربع كامل (70ر74 م في 50ر74 م) اي 5565 متر مربع ، وهذا الجامع من اكبر مساجد المغرب ولا يفوقه في الضخامة عدا جامع حسان (523 25 متر مربع) وجامع القرويين (300 6 متر مربع) بينما تزيد مساحته على مساحات جامع القصبة بمراكش (512 5 متر مربع) وجامع الروى بمكناس (حوالي 930 4 متر مربع) وجامع الاندلس بفاس (نحو 760 4 متر مربع) والجامع الكبير بتازا (3000 متر مربع) والجامع الكبير بالرباط (نحو 2000 متر مربع) واذا كان شكله المربع عاديا بالنسبة للمساجد الصغرى فانه نادر اذا نظرنا الى الجوامع والمساجد الكبرى .

وكان للجامع ثلاثة صحون معترضة مفصولة بعضها عن بعض بخمس عشرة حنية في الاتجاه الشمالي

---

(142) ويؤكد الضعيف هذا التاريخ (مخطوط المكتبة العامة بالرباط ص 499)

(143) كما ورد في الاستقصا وفي البستان لابي القاسم الزياني (ص 173 من مخطوط مكتبة ابن زيدان) وفي تاريخ الرباط للضعيف .

(144) كاييه ـ تاريخ الرباط ص 458

الشرقي والجنوب الغربي كما هو الشان فى جميع مساجد العهد العلوي وخاصة فى جامع الروى ولالة عودة (مكناس) وجامع مولاي سليمان (الرباط) وجامع الرصيف (فاس) وهو اتجاه مقتبس من الهندسة المعمارية التى عرفت منذ القرون الاولى فى كل من جامع القرويين وجامع الاندلس بفاس ولعل الاتجاه الملحوظ فى عهد العلويين يعكس الخلاف القائم بين الفقهاء حول مفهوم الحديث الشريف « ما بين المشرق والمغرب قبلة » والذى قرر العلماء المتاخرون انه خاص بموقع المدينة المنورة خلافا لما ارتآه الظاهرية فى عهد الموحدين وان المفهوم الصحيح لهذا الاتجاه بالنسبة للمغرب هو « ما بين الشمال والجنوب ».

اما ساحة الجامع فان شكلها حرد (أي بعضها اطول من بعض وغير متساوية فى الطول) وهي اوسع من الصحن وتحتوي فى طول الجدار الشمالي الغربي على سلسلة غرف (كان الطلبة يسكنون بها) ورواق مربع (استخدم كزاوية تجانية داخل الجامع) تقابله الصومعة فى الطرف الآخر الملاصق لدار الوضوء ، وكان المصلون ينفذون الى الجامع من خمسة ابواب (ثلاث منها فى واجهة المسجد) علاوة على الباب السادس المضاف وراء المحراب .

وقد بنيت معظم جدران الجامع من الملاط المقوى القليل الكلس والمخلوط بشظايا القرميد والآجر اما هياكل الابواب فانها من الحجر المنحوت المغطى بطبقة كثيفة من الجير بينما بنيت الاساطين الداخلية المربعة بالآجر وكذلك الحنايا والاقواس ويتجلى المحراب فى شكل هرم ذي خمسة رفارف او ذيول وتغطى سقوف جملونية من البرشلة ذات منحدرات اربعة صحون المسجد الواسعة التى يبلغ طولها واحدا وسبعين مترا وعرضها سبعة امتار وتعتمد اربطة الجملون (وهي خشبات تصل كل واحدة منها طرفي الجملون ، وتباعد بينهما) فى اطرافها على مسانند ناتئة مغروزة فى الجدران وتزدوج هذه الاربطة فوق الاقواس الا ان المجموع يخلو من طابع الرشاقة الذى عمل السلطان محمد الرابع على اضفائه على الجامع عندما اضاف الى الصحن اروقة جديدة وابهاء باساطينها الضخمة الاربع عشرة التى تصلها حنايا مكسورة ومتفتحة من الحجر المنحوت تقابلها فى الصحون الداخلية اقواس مكسورة حدوية (أي على شكل نعل الفرس) واسعة ذات مركزين يبلغ علوها ازيد من خمسة امتار وانفتاحها ثلاثة امتار ونصف متر اي تسعة اضعاف البعد الذى يفصل المركزين وتقضي التقاليد المعمارية فى المغرب بأن تكون هذه الاقواس مأطورة ضمن مربع مستطيل ومشرع (اي يرتفع عقد قبته فوق القوس التام او النصف الدائري) وارتفاع هذه الحنايا هو الذى يضفي نوعا من الرشاقة على البناية التى تتسم بسبب امتداد الصحون (7ر71 مترا) بشيء غير قليل من الضخامة والجلال يزيدها بساطة وروعة خلو قبة المحراب المثمنة الشكل من العقود الركنية ومن المقربصات اللهم الا تلك القولبة الخلابة التى تمتاز بها العضادات التقليدية الجامعة بين الزينة المقعرة والخيوط المشبكة ولا ينفذ النور الى الصحون الا من خلال الحنايا المتفتحة على الساحة الخارجية المنتظمة الهندام التي كانت مساحتها تبلغ 72 مترا عرضا فى 7ر42 م عمقا قبل التوسيعات الملحقة آخر القرن الماضي والتى جعلت منها باحة مربعة (72 م فى 77ر73 م) وتتوسط ساحة الجامع فسقية من الرخام الابيض تحملها دعامة مرمرية ضمن مربع من الزليج العصري تفور من جانبها مياه غبولة وتقوم بين الصومعة والرواق المربع (الزاوية التجانية) على طول الجدار الشمالي الغربي اربع بنايات تحيط بأبواب الواجهة وتبلغ كل واحدة منها 75ر4 م عمقا و 12 الى 14 م عرضا وتحتوي كل بناية على اربع غرف كانت مأوى للطلبة الذين انزلهم السلطان محمد بن عبد الله (145) بالجامع وامدهم على ممر الايام بالمئونة اللازمة تعميرا للجامع وتشجيعا لحملة العلم .

اما الصومعة فقد ظلت فى شكلها الاصيل ومكانها الاول الى ان نقلت بأمر من صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله الى الركن المقابل حيث كان رواق التجانيين وذلك لتكون فى سمت شارع محمد الخامس ، وكان علو المنارة يبلغ 25ر24 م اي ستة اضعاف القاعدة المربعة التى لا تتجاوز اضلاعها ستة امتار اما الصاري الواقع تحت الجامور فان قسمه المربع يبلغ كل ضلع منه 75ر3 م وعلوه 41ر6 م ، وقد فتحت نافذة فى كل ضلع ويحتوي الجامور على ثلاث كور من الخزف الاخضر المبرنش .

(145) تاريخ الرباط للضعيف (مخطوط المكتبة العامة بالرباط ص 444)

وكانت الزخرفة بسيطة فالسواري مجردة من التيجان كما أن الاقواس عارية من كل نقش ولا يوجد الخشب المنحوت الا فى الباب الشارع من جدار القبلة وهي باب ذات حنية مكسورة ومشرعة مفصصة الزينة على غرار القويسات المطرزة فى اطراف الثوب وهذه المفصصات مرسومة فى شكل ثلاثة اشرطة دقيقة متداخلة وتحتوي الالواح المأطورة على صور نباتية ملتفة محلاة بالافنان والورق ضمن طيقان زخرفية مقوسة نافذة تتوسطها زهرة رائعة المنظر فى الوانها الزاهية من ابيض واخضر واحمر فى خلفية زرقاء تبرز المجموع فى حلة قشيبة يتكاثف سعفها وبراعمها وانوارها وكؤوسها وتخاريمها وهذه الالوان الرائقة والرسوم المتشابكة مظهر من التراث الاندلسي المغربي الذى تزاوج على مر العصور مع معطيات الفن الشرقي وخاصة السوري والمصري بفسيفسائه الزهرية وانتظام اجزائه ووضاءة جنباته ، ويمتاز المحراب الى جانب ذلك بالنحوت على الجبس وتراكب الاقواس والكتابات الكوفية والحنايا المقفلة وقبة قد رسمت عليها نجمة ذات تفاريع تتوسطها قبيبة منجمة وهي زخرفة حديثة من معطيات فن القرن العشرين، تزيدها روعة ما تمتاز به من قولبة هندسية رقيقة وانتظام فى التخطيط وجلال فى الهيكل .

وقد قامت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية — بأمر من جلالة الحسن الثاني أيده الله — بتجديد هيكل جامع السنة فنقلت عام (1969) منارته من الطرف الشمالي الى الطرف الجنوبي للمسجد ، وكان ذلك عنوانا ناصعا على امتداد روعة الفن المغربي الاندلسي بطابعه الخاص الذى اندرست معالمه فى الوطن العربي كما تجددت سقوف الصحون والبلاطات وازدانت مختلف الاروقة بنقوش خلابة وبرزت براعة الصانع المغربي فى النحت على النحاس الاصفر اللماع الذى لبست به ابواب الواجهة بشكل لم يسبق له نظير فى تاريخ الفن بالمغرب فكانت هذه المظاهر وكثير من اشباهها فى أجزاء هذا التجديد ضورا حية لعمق المكاسب الاندلسية والشرقية الاسلامية فى حضارتنا الحديثة التى تضم الى رواء الجمال العصري جلال الفن التقليدي ، وقد أصبحت الصومعة الجديدة شامخة فى هيكلها الضخم يراها الناظر وقد أطلت فى سمت هندسي محكم على أكبر شارع فى العاصمة هو شارع محمد الخامس رمز النهضة المغربية الحديثة ورائد الفكر الحضاري والاسلامي الجديد فى المغرب العربي .

وجامع اهل فاس هو جامع المشور الذى اكد الضعيف انه من مآثر السلطان الامجد المولى محمد ابن عبد الله. الا ان بعده عن المدينة جعله كجامع السنة قليل الرواد خالي الوفاض الى ان جاء السلطان الاكرم محمد الثالث (محمد بن عبد الرحمن) فجدد بناءه وموه سقوفه بالذهب والبرقشة ثم توالت التعديلات عليه وخاصة فى عهد جلالة المرحوم محمد الخامس طيب الله ثراه الذى افرغ فيه اروع مجالي الفن المعماري الجديد نقشا ونحتا وتبليطا وقربصة وتزليجا . ولا يزال جامع الخطبة الملكية السامية يقصده الشعب من كل فج للتملي بطلعة ملك المغرب الهمام الحسن الثاني نصره الله .

ويقع جامع ملين قرب الحديقة التي عرفت فى عهد الحماية بحديقة المنظر المثلث Triangle de vue ولا نكاد نعرف شيئا يذكر عن هذا المسجد الذى ينسب بناؤه الى أحد أفراد عائلة أندلسية هي عائلة ملين فى أوائل العهد العلوي وان كان من الصعب التسليم بذلك بسبب سكوت المصادر التاريخية والرحالين العرب والاجانب الذين وصفوا الحدائق والجنان فى المساحات الشاسعة الخالية بين السورين الاندلسي والموحدي دون الاشارة الى هذا المسجد الذى قد تهدمت اليوم معالمه من سقوف وحنايا واساطين عدا منارته التى ما زالت قائمة الى الآن والتى يبلغ علوها ستة عشر مترا (أي ثلاثة اضعاف ونصف عرضها) ولا يزال الهيكل الاصلي واضحا فى مساحة المسجد المربعة (23ر45 م فى 23ر66 م) وبلاطيه المعترضين واقواسه الكبرى السبعة المسندة بسوار ضخمة مربعة القاعدة علاوة على ثلاثة أقواس تصل البلاط بالصحن الخارجي والمحراب المثمن الشكل البارز فى نتوء رباعي مستطيل خلف جدار القبلة والصحن اكبر بقليل من بلاطات الصلاة (209 متر مربع بدل 203 متر مربع) وله شكل حرد (أي بعضه أطول من بعض) وينفذ اليه المصلون من باب واحد قبالة المحراب فى الطرف الآخر والشيء الذى يمتاز به هذا المسجد بالاضافة الى بساطته هو اعتراض بلاطية على غرار المساجد العلوية وجامعي القرويين والاندلس . ولا اثر لاي نقش ولا ترخيم عدا فى المحراب المحلي بقولبة من الجبس وبقبة مفصصة القويسات مثل باب الرواح ، وجامع حسان مع تناسق وانتظام فى الصوص ورقة فى الابعاد والاحجام وتوافر الآجر والحجر غير المنحوت ومع ذلك فان التخطيط المعماري يترك فى

النفس ارتسامة خاصة هي الشعور بالانسجام وشيء من الرشاقة وتناسب الزخارف رغم بساطتها والظاهرة البارزة التى تؤكد عدم نسبة هذا البناء للمهدين المريني أو السعدي هو انعدام اي اثر لتقاليد هذين العصرين ، والشبه الملحوظ فى خصوص تصميمه وهيكله وتشكيله بينه وبين المساجد التى اقامها السلطان محمد الثالث كجامع السنة الذى يقول كايبي (146) انه صورة مصغرة منه ولعله من المساجد الستة التى اشار اليها أبو القاسم الزياني عندما عدد مآثر العرش العلوي فى اواخر القرن الثاني عشر الهجري وهو من أبرز عصور الازدهار العلوية .

ويقع جامع مولاي سليمان فى حي السويقة على مسافة اربعمائة متر من الجامع الكبير وهو يحمل اسم السلطان الذى اسسه حسب راي مؤرخي الدولة العلوية ، وان كان البعض يسميه جامع السوق والبعض الآخر جامع السويقة وتاريخ هذا البناء هو 1226 هـ (1812 م) على ان الزياني يؤكد ان مسجدا آخر كان قائما بنفس المكان قبل المولى سليمان الذى لم يزد على كونه قام بتجديده وتوسيعه . **تلك نماذج من الفن المعماري فى العهد العلوي تبرز المجهود الذى بذله الاشراف لبلورة الفن وضمان وجود هذا التراث الاندلسي المغربي الحي .**

الفن البربري والزخرفة المعمارية

يتسم الفن البربري أحيانا بنوع من السذاجة وهو يختلف كل الاختلاف عن الفن الحضري الذى يطغى فيه الطابع الاسلامي على اللون اليوناني الروماني .

ان الخيمة المتنقلة هي نواة « الدوار » تساعد على حركة انتجاع الكلأ فى الاقاليم القاحلة فى حين يستقر غير الرحالين فى دسكرة تتشكل فى مجموعة من الدور وهنالك نوع ثالث من المساكن خاص بنصف الرحالين الذين ينتقلون عن مرابطهم الاصلية مرتين فى السنة صيفا وشتاء وهذه الفئة تتارجح بين الاخبية واخصاص القصب او الطوب والدور واذا كانت الوحدة سائدة من طرابلس الى سوس فى خصوص معالم الزخرفة واساليب النقش فان الشكلية المعمارية تختلف بين هذا الاقليم وذاك فالى جانب الدار المقوسة المنحوتة فى بعض الصخور الاطلسية على غرار كهوف ما قبل التاريخ ـ توجد الدار المتسمة بالطابع المغربي الاصيل فى جميع انحاء البلاد سواء منها الصحراء أم الاطلس أم السهول والبطاح .

فالايغرم او التغرمت هو المستودع المحصن فى الاطلس والمجمع القروي والملجأ الجماعي عند الخطر وتفوق هذه الايغرم من حيث الهندام المعماري وضخامة الهيكل قصور قواد الاطلس المكونة من دار القائد ومساكن الحاشية والمستودعات والاصطبلات والباحات الواسعة والحدائق المحاطة بسور تعلوه ابراج محصنة فهذه القلاع الافريقية .. تشرف من قمتها الاستراتيجية السامقة على الدسكرة المجاورة متحدية هجمات المعتدين كما تتقارب مع الحواضر فى مواد واساليب البناء فالطوب قديستعمل بدل الحجارة المنحوتة ولكن الاحجار العادية والآجر منتشرة وتمتاز الاخشاب فى الاعمدة والابواب وكذلك الحدائق بنقوش وترصيعات جميلة بينما تزدان البيوت بأثاث يتناسق داخل هذا الاطار المعماري الرائع الذى تتحدد معالمه باطراد نحو الرقة ويحتوي الاثاث على صناديق منقوشة وملاعق واعمدة مرصعة للخناجر واوعية للبارود ومقابض للبنادق أو المدسات واوان منمقة وركب منحوتة للفرسان وتتجلى فى هذه البدائع عبقرية حق الا انها لا تعادل روعة الزخرفة ودقتها فى كبريات الحواضر ويشتغل السوسيون والاسرائيليون خاصة فى صهر المجوهرات الكريمة او المصوغات الذهبية والفضية المطعمة بالحجارة الثمينة كالخواتم ذات الصفوف والمعالق المذهبة والعقود والاسورة والاقراط والتيجان والخلاخل الخ ..

أما صناعة الخزف فى البادية فتكاد تنفرد بها النساء لاسيما فى الريف والتسول (ناحية تازة)

(146) تاريخ الرباط ص 481 .

وتختص الصحراء (درعة) فى نقش الخوابي كما يتفنن الاطلسيون فى رسم الصور المختلفة على الاواني المنزلية وتتبلور فى النسج رسوم وتسطيرات رائعة من ذلك الإسحال والاسديات المستعملة فى الاخبية والمصنوعة بسداة خشبية مبسوطة على الارض تتسم بالبساطة ولكن لا تخلو من رواء لان النقوش تتحقق بمجرد تداخل اللحمة فى السداة وتتلون بادراج خيوط خاصة حسب انعراجات هندسية مدققة وهذا النوع من النسيج يكثر عند الرحل الذين يتخذون الاخبية مساكن لهم اما القبائل القارة فان مناولها تتركب من ركيزتين واسطوانتين فاللحمة المعالجة باليد تغطي السداة فترسم النقوش طبقا للحركة الصادرة عنها واذا تغير لون اللحمة دوريا تكونت سلسلة من الخطوط المتوازية ثم اذا طفت بعض الخيوط على سطح النسيج لتظهر فى نقط محدودة تشكلت رسوم وصور فاذا ما اصاعدت خيوط اخرى مستقلة عن السداة او اللحمة فى اتجاه منحرف او عمودي ارتسمت نقوش هندسية رائعة تتجلى فى الخمر والبرانس والاردية والاكسية والمخدات والوسادات وتختص فى صنع هذه البدائع نواحي درعة (147) والريف وجبالة والاطلس والسوس وبزو بينما تمتاز الشاون ووزان فى صنع الخرقة والحايك المشهورين بالرقة وجودة النسيج .

اما الزربية فهي قطيفة تقوم لدى الاثرياء مقام الحصير كبساط للجلوس فى الدور والمساجد وتنسج انواع مختلفة من الزرابي فى زمور (ناحية الرباط) والرباط وزيان وكلاوة (بالاطلس الكبير) وغيرها وتمتاز بعضها برسوم رائعة الى جانب الجودة والمتانة .

وتعالج الجلود من طرف فنانين يصنعون الخرجة واجهزة الافراس والقرب والاحذية والمثابن (اكياس نسوية) والوسائد المرصعة بخيوط الحرير او بمصنوعات مشبكة بالفضة والذهب.

ويمكن ان نلاحظ مع الاستاذ ريكار أن العنصر الذى يثير الانتباه فى الرسوم البربرية هو طابعها الهندسي القار لان الاقتباس من صور الطبيعة من شواذ هذا الفن مثال ذلك الدمى المصنوعة من الخشب فى قبيلة بني مطير وتختلف الرسوم الى ما لا نهاية له : من المربعات المتداخلة البسيطة الى تروس صغرى (تحمل شعار الشرف) الى رقع اللعب الى خطوط متشابكة واشكال سداسية الزوايا والاضلاع لنقش الحنايا والسقوف .

وفى النواحي التى ينعدم فيها الحجر يباشر البناء بالطابية (تراب مبلل فى اوعية مستطيلة) التي تعتبر نوعا من الاسمنت المقوى وقد استعملت هذه المادة فى المدن الاسلامية الاولى بالمغرب مثل البصرة ونكور (148)، والطوب المصنوع من التراب المجفف اقل مناعة اما الآجر فانه تراب مطبوخ فى الفرن وكذلك الاحجار والقرميد المستعملة فى تبليط الارض وتسقيف السطوح غير ان الحجر والمرمر المستخرجين من المناجم المحلية (عكراش بناحية الرباط وابن احمد بناحية الدار البيضاء ومراكش) هما العنصران العاديان فى التعمير وقد جلب المغرب الرخام من ايطاليا ايام السعديين فى مقابل السكر وزنا لوزن ولكن المغرب رجع منذ عهد المنصور الذهبي الى اساوبه القديم فى صنع الرخام وقد استغلت اشجار الارز المتوافرة فى الاطلس والريف لصنع الاخشاب التى هي من المواد الاساسية فى البناء

---

(147) كان يوجد بدرعة نوع من الحجارة تحك بين الايدي فتنحل وتصير اشبه بالكتان وكانوا يصنعون منها الحبال والارسان والمقاود ومن خواصها عدم الاحتراق وقد جلب احد التجار لفرديناند ملك كاليسيا باسبانيا منديلا صنع من هذه المادة اهداه اليه زاعما انه من مخلفات احد تلاميذ المسيح (وصف افريقيا الشمالية ترجمة دوسلان ص 336 وكذلك كتاب الاستبصار وهو مخطوط مجهول المؤلف وذكر ابن سعيد انه راى فى سجلماسة صكا لاحدهم على آخر مبلغه اربعون الف دينار وقدسبق انذكر ذلك ابن حوقل(المسالك ج 70) وفى معجم ياقوت ان لنسائهم يدا صناعا فى غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق الذى بمصر يبلغ ثمن الازار 35 دينارا واكثر كارفع ما يكون القصب الذى بمصر ويعملون منه غفارات .

(148) مدينة نكور هي المزمة حسب البكري (المسالك ص 99) او الحسيمة حسب (ميشوبيليير ـ المحاضرات ص 192) والخلاف بسيط لان بينهما بضعة اميال بحيث يمكن القول بانهما كانتا تكونان جانبي المدينة .

وتمتاز الهندسة المعمارية المغربية خاصة باعمدتها واقواسها وحناياها التى بلغت نقوشها وتسطيراتها درجة متناهية فى الجاذبية والرواء وقد اجتازت هذه النحوت مراحل شتى تبدأ بالاسطوانة المرمرية الموحدية البسيطة وتنتهي بالعمود المريني الرقيق الذى يخلب اللب بفسيفسائه وتعاريجه وقد استقدم الموحدون من قرطبة رؤوس اساطين رائعة كللوا بها اساطين جامع الكتبية بمراكش ومسجد تينمل فكان لذلك اثره فى تكييف هذا الجانب من الفن اذ عوضا عما فى جامع حسان بالرباط من الانضاد الحجرية المتراكبة والمجللة بتاج ساذج ـ اصبحنا نشاهد مجموعة متناسقة مستديرة الساق ذات رؤوس مكعبة الرسوم مورقة الاضلاع او حلزونية الشكل زهرية التعاريج .

وقد تبلور فى العهد المريني طراز رؤوس الاعمدة فاتخذت هذه الرؤوس الاتجاهات العامة التى طبعت مجموع مظاهر الفن الاسلامي ومن هذه المنازع الجديدة تسطيح النقوش الناتئة واستواؤها وكذلك الاستعاضة بالصفوح او المصاريع الماطورة الخفيفة التغوير عن الصور البارزة .

وقد عرف القوس نفس التطور فمن اقواس نصف دائرية بسيطة الى حنايا متقطعة الى عقود تجاوزت النطاق الدائري وتعلو احيانا آجر الاقواس اسكفة محمولة على دعامتي الباب باسناد تتفنن فى نقشها يد الصناع وتضفي القباب بنتوئها وتعقيداتها واجزائها المتساوقة طابعا من الاصالة على هذا الهيكل المعماري السني .

وهكذا استخدم النقاش منذ العهدين المرابطي والموحدي الحجارة والمرمر والطين المطبوخ فازدانت منارة جامع القصبة الموحدية (مراكش) بقطع نقشية ذات طابع بيزنطي اقتبسها الامويون لاول مرة فى الاندلس واخذها عنهم الموحدون فالقوس المستدير الكامل وكذلك الحنايا المفلوقة او المفصصة (على غرار ورق الاشجار) اصبحت العنصر الكلاسيكي فى بناء الصحون (على نسق صحون جامع قرطبة) مع ما تنطوي عليه هذه من مقرنصات وتعاريج فى رؤوس الاساطين كما فى تمسمان وتينمل والكتبية بمراكش وكانت الكتابات المنقوشة لا تزال بدائية فى هذا العصر غير ان التسطيرات الهندسية والزهرية كانت قد قطعت شوطا لا بأس به .

وقد ازدهر فى القرن الخامس خاصة فن النقش على الخشب على ان نفس الفنانين كانوا ينحتون على المرمر والعاج وتمتاز منابر الجمعة فى القرويين والكتبية وجامع القصبة بدقة فى النقوش تفوق قيمتها روعة التنميق وهذا النقش الخشبي الرائع يحيل ارز الاطلس الى سقوف واطناف (كرنيزا) ومن (كيام) بديعة الا ان هذه العناصر النقشية اتخذت ايام المرينيين سمات طريفة حيث أمست الاحجار المنحوتة والجبس المنقوش او المفرغ الزينة الغالبة فى الجدران او أجزاء القباب اما الالوان فان وفرتها من خصائص هذا العصر وان كان المرابطون قد تفننوا هم ايضا فى تلوينات القبة التى فوق محراب القرويين كما اسفرت عن ذلك الحفريات منذ بضع سنوات وكأن مادة التلوين الشفافة تستمد انعكاساتها من حرباء فتختلف الوانها باختلاف اتجاه النور المنعكس عليها اما الترصيعات الخزفية فقد تساوقت مع المعطيات الجديدة فى الهندسة المعمارية وهي تقوم ازاء الافاريز والرسوم الوردية الشكل المحدقة بالمنارات والاشرطة الكتابية واطر الابواب ـ بتزيين الجدارات والاعمدة وحتى بلاطات الاروقة والغرف (149) .

وقد خف فى هذا العصر استعمال رؤوس الاساطين واستعيض عن الاقواس المفصصة المستخدمة فى المنارات بأقواس على شكل هلال مقربص وتوافرت النقوش لاسيما فى الافاريز الكتابية المنقوشة على الجبس .

ومنذ القرن الثامن اصبح نفس الاسكفات ومناضد الارز يتناسق فى الهيكل المعماري العام مع النقش على المعدن المتجلى فى نحت ابواب البرونز فى بعض المدارس المرينية اما الخزف فانه منقوش بآلة حديدية على شاكلة النحت الشرقي الاندلسي لاواني «البديع» ذي الانعكاسات المعدنية ومعلوم ان فسيفساء البديع ظهر فى القرن الحادي عشر الميلادي (150) بقلعة بني حماد ثم اتخذ اشكالا مختلفة من دوائر سوداء منعزلة وسط آجر وردي (مرصد الخالدة باشبيلية) الى افريز واسع من الحجر الثمين الاخضر (جامع

(149) (فى الاسلام) ص 143

(150) « ريكار » فى كتابه « من اجل فهم الفن الاسلامي » ص 155 .

الكتبية) فى عهد الموحدين ثم فى النهاية ازدهار صفائح الرخام المختلفة الاصباغ والتلوينات (الزليجي) وقد اصبحت بعض قطع الفسيفساء ايام بني مرين عبارة عن اجزاء متماسكة مسلسلة باللون الاسود (فى الغالب) تثبت عليها الرسوم بالمنقش وقد انتشر هذا الاسلوب بالمغرب خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر فى زوايا الحنايا والاقواس وافاريز الابواب على ان المغرب احتفظ منذ السعديين بأساليب النقش الاخرى لاسيما النحت على المرمر فعلاوة على الرخام الذى جلبه المنصور من ايطاليا استغلت مناجم انوكال التى تشبه احجارها الرخام وكذلك مناجم امينتالة وكانت مناجم كيك التى هي اقرب لمراكش لا تقل قيمة عن هذه المناجم الا ان قلة الماء الضروري لتقطيع الحجر كان معدوما بهذه الجهة وطريقة استخلاص هذا الرخام بسيطة حيث تضرم النار كما يقع فى الهند فوق اخاديد تحفر فى الصخر ثم يصب فوقها الماء الذى تشق برودته هذا الصخر (152) وتظهر مهارة الجباسين المغاربة خلال العصور الحديثة فى نحت مزيج الكلس والرخام المستعمل فى الترخيمات المعمارية كما تتجلى عبقرية النجارين فى بري وتقليم المواشير الخشبية التي تتكون منها قطع المقربصات وتتفنن يد الزليجي الصناع فى اقتطاع دقاق الزليجي وتلوينها لتبليط الاديم والجدر والفسقيات والكوى غير النافذة وسيقان الاعمدة الدائرية (153) فاذا فقدت النحوت الكتابية من رقتها والرسوم الهندسية من ثروتها فان الصور الزهرية اصبحت تقتبس من ينابيع جديدة هي عبارة عن مجموعة من النباتات الفارسية تزدان سعوفها وزهيراتها بالقرنفل والسوسن غير ان الخزف الفسيفسائي الذى ما زال يصنع بالمغرب ولكن على وتيرة وئيدة ـ لم يحتفظ بذلك البريق المعدني الذى كان له فى الماضي ونافسه الزليجي الاندلسي المجلوب الى شمال المغرب (تطوان)

ومهما يكن فان هذا الفن لم يستعد ازدهاره القديم بل فقد كثيرا من عناصر طلاوته وقعارته .

من مظاهر الهندسة المعمارية
في المساجد والمعاهد

عند ما تولى يحيى بن محمد بن ادريس ملك المغرب عام 234 هـ كثر الواردون على فاس (154) فكان ممن قدم من القيروان محمد بن عبد الله الفهري الذي استقر مع ذويه فى عدوة القرويين وخلف بعد موته بنتين هما : « فاطمة أم البنين ومريم » وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا أن تصرفاه فى وجوه البر فعلمتا أن الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير فى كل عدوة من فاس لضيق الجامعين

---

(151) نفح الطيب فى ثنايا الكتاب .

(152) مجلة هسبريس عام 1956 عدد 43 ص 101 ـ 115

(153) فن الاسلام ص 185 .

(154) اسست القرويين بعد بناء فاس بثلاثة ارباع قرن وقد اختلف فى تاريخ بناء فاس ، وافرد ليفي بروفنصال بحثا فى الموضوع اقتبس فيه من مؤرخين كأبي بكر الرازي المتوفى عام 344 هـ والذي يقول بأن باني فاس ادريس الاول الذي جاء الى المغرب عام 172 هـ ومات عام 174 هـ وبنيت المدينة فى نظره خلال هذه الفترة ، ولاحظ ابن سعيد ان ادريس الاول لم يؤسس سوى عدوة الاندلس ونقل ابن الابار عن ابي الحسن النوفلي ان ادريس الثاني بنى عدوة القرويين عام 187 هـ ويوجد فى مكتبة باريس درهم سك بفاس عام 189 هـ اي قبل التاريخ العادي لبناء فاس بعامين، كما يوجد درهم فى متحف كاركوف بروسيا سك بفاس عام 185 هـ وهو التاريخ الذي يعطيه الحسن بن محمد الوزان لبناء فاس .

القديمين (155) بالناس فشرعت فاطمة في بناء جامع عدوة القرويين ومريم في بناء جامع الاندلس (156) .

وقد وقع الشروع في بناء جامع القرويين في رمضان 245 هـ ونصبت قبلته على غرار قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه المولى ادريس ، وكان يحتوي أول الامر على أربعة بلاطات ابتداء من القبلة ، ولكل بلاط اثنا عشر قوسا من الشرق الى الغرب ، واقيم المحراب مكان الثريا الكبرى ، كما جعل في مؤخرة صحن صغير وصومعة واحتفظ بهذا الهندام المعماري الى ان كثرت العمارات واتصل البناء في ارباض المدينة من سائر الجهات وجرى امر زناتة بأرض المغرب سنة 307 هـ فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره واقيمت بجامع القرويين لاتساعه وصنع له منبر من خشب الصنوبر .

وعندما دعت زناتة لعبد الرحمن الناصر ملك الاندلس وبايعه أهل فاس قام العامل أحمد ابن ابي بكر الزناتي بتوسيع المسجد منفقا عليه « من اخماس غنائم الروم » فزاد اربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف (اى الشمال) في موضع الصحن الذي كان فيه بلاط واحد بعد ان هدم الصومعة لتطاول اشرافها على الدور المجاورة واصبح مصعدها يضم مائة درجة ودرجة وغشي بابها لمواجهة للقبلة بصفائح النحاس الاصفر وتم ذلك كله عام 345هـ حسبما في التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل في اعلاها قبة صغيرة ووضع في دورانها تفافيح مموهة بالذهب في زج من حديد وركب في الزج سيف الامام ادريس مؤسس المدينة وبنيت تحت القبة المذكورة قبة اكبر منها لجلوس المؤذنين لاشاعة الآذان في أوقاته ، وكان فيها بيت الراعي منهم لاوقات الليل وانصداع الفجر وبندائهم يقتدي باقي المؤذنين بصوامع المدينة ، وتوجد بمواضع من المنارة بلاطة رخام وسط كل منها قائم يستدل بصدود ظله على خطوط بطول ازمان النهار ومرور ساعته ، وفي عطفات ادراجها سرج زاهرة الضياء يمر عليها الليل ، وفي عهد يوسف المريني (685 هـ) نصب بدن من الفخار بالقبة العليا فيه الماء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقاب يخرج منها الماء بقدر معلوم الى ان يصل الخطوط فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار ، وقد صنعت في غرفة مطلة على الصحن منجانة على يد المعدل محمد الصنهاجي عام 714 هـ وهي عبارة عن مجن من خشب الارز جعل في ركن الغرفة عن يسار المستقبل ووضع في داخله بدنان كبيران من فخار احدهما اعلى من الآخر يحتوي على ماء وبالاسفل انبوب من نحاس يهبط منه الماء في البدن الاسفل بقدر معلوم ، وجعل في طرف الجنح (الآلة) مفطس (جفنة) وكذلك في جانبي التغطيسة رسمت فيها الساعات ودقائقها وأوقات الليل والنهار وجعل الموقت المسطرة معلقة في (158) ... خارجا من الجنح يجري في حفر التغطيسة طالعا وهابطا ، وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الاسفل جسيما مجوفا من نحاس على هيئة الاطرفة (اي الجوانب الداخلية) معلقا في الطرف الداخلي على العلو فاذا طلع الجسم بطلوع الماء الذي يجتمع في البدن الاسفل طلع طرف (157) الخارج من التغطيسة وطلعت بطلوعه المسطرة ـ وفي ايام ابي عنان (749 هـ) جعل خارج الجنح دائرة عليها شبكة الاسطرلاب تدور رسومه ومتى طلعت المسطرة عرف بها الوقت ، كما اقيمت هناك رمليات لاختيار الوقت مع اسطرلابات اخرى ، ومنذ هذا العهد جعلت صارية ينشر فيها العلم ايذانا بأوقات الصلاة النهارية ومنار لاوقات الليل وقد صنع أبو عنان (عام 758 هـ) « مجانة بطيسان وطسوس من نحاس » مقابلة لباب المدرسة التي أسسها بفاس « وجعل شعار كل ساعة ان تسقط صنجة في طاس وتنفتح طاق » .

وقد بنى المظفر بن المنصور بن ابي عامر المنبر عام 388 هـ من « عود الابنوس والعناب وغيرهما » فخطب عليه الى ايام علي بن يوسف بن تاشفين حيث صنع عام 538 هـ منبرا جديدا « من عود الصندل والابنوس والنارنج والعناب وعظم العاج » مع غشائين من جلد وكتان ، وذلك على يد نجار كان اماما في اللغة والشعر (158) ، وكلف صنعه نحو 3800 دينار فضي.

---

(155) لاحظ ابن ابي زرع ان عدد مساجد فاس انتهى ايام المنصور والناصر الموحديين الى 782 مسجدا علاوة على 122 ما بين سقايات ودور الوضوء و 73 حماما (الانيس المطرب ج 1 ص 64).

(156) زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي طبعة 1340 ، ص 34 .

(157) نفس المصدر .

(158) زهرة الآس ص 42 .

وقد زيدت بجامع القرويين فى مختلف العصور بناءات جديدة منها الباب الاكبر بسماط الموثقيـــن (العدول) عام 505 هـ وبخارجه قبة الجص المقربصة (عام 617 هـ) وباب الشماعين (عام 518 هـ (159) مع قبتين احداهما بالداخل من الجص والاخرى من الارز بالخارج (160) .

وفى عهد علي بن يوسف اشتريت دور كان اكثرها فى ملك اليهود وزيدات فى المسجد عشرة بلاطات من الصحن الى القبلة (161) والقبة بأعلـى المحـــراب « بالجص المقربص الفاخر الصنعة » ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد واصناف الاصبغـة (162) وركب فى الشماسات التي بجوانب القبلـــة اشكـــال متقنة من انواع الزجاج والوانه « ثم غشيت ابـــواب الجامع » بصفائح النحاس الاصفر بالعمـــل المحكـــم والشكل المتقن ، (كل ذلك عام 533 هـ) ، وقـــد لاحظ ابن ابي زرع ان هذا الفن كان يبهت الناظرين ، فلما دخل عبد المومن بن علي عـــام 540 هـ خـــاف الفقهاء والاشياخ ان ينتقد ذلك النقش والزخرف لان الموحدين قاموا بالتقشف والتقال فغطـى البنـاءون النقش والتذهيب الـذي فـوق المحـراب وحولـه بالكاغد ثم لبســوا عليـــه بالجص وغســـل عليـــه بالبيـــاض (163) .

وقد علق جورج مارسي على هذا الحدث فزعم انه قصة ملفقة لتبرير البياض والفراغ الملحوظين فى قبة المحراب (164) الا ان الحفريـات التى قامت بها مصلحة الفنون الجميلة منذ عام 1952 اكدت حكاية المؤرخ العربي ، فقد كشف عن نقوش رائعة غير انها لا تحتوي على اي توريق ذهبي، وقد لوحظ ان اصناف الاصبغة المشار اليها من طرف صاحب القرطاس هي الازرق والاحمر والمغرة الصفراء ، وما زالت الالوان متماسكة وفى رائق غضاضتها ، ويظهـــر ان مزيـــج الاصباغ كان يحتوي على مح البيض الذهبي اللون وان الدهان كان كامدا للتخفيف من بريق أشعة النـــور المنعكس من النوافذ .

وقد جهز الجامع بمستودع توضع فيه امـــوال الجامع وامانات الناس ، وكان محصنا بخشـــب الارز وبخمس منافيس بصفائح من حديد مقلوبة « وبنيت دار الوضوء بخمسة عشر بيتا مع طاق فى سقف كل بيت للانارة وانبوبة نحاسية ينصـــب منها الماء » فى نفير محفور من حجر ، وفى سمكها قبـة من جبس مقربصة مرقشة بأنواع الاصبغة وجعل بوسطها بيلة من الحجر الاحمر مع ثقوب من نحاس مموه بالذهـب والبيلة والخصة كلاهما من عمل رجـــل سجلماســـي صنعهما له رجل آخر « من اهل المعرفـــة بالبنـــاء والهندسة » اما العنزة فقد اقيمت عام 688 هـ «وفيها غرابة الصنعة ونفاسة الخشب واتقان الالصاق ودقة الخرط والنقش ما يقضي بالعجب » (165) وصنعت سقاية منمقة « بالجص والحجر المنجـــور وانـــواع الصبغة » كما جعلت على المحراب عام 712 هـ مقصورة من خشب الارز الغيت بعد ذلك ، أما الخزانة فقـــد اسسها ابو عنان المريني عام 750 هـ وجهزها بالكتب المنوعة وعين قيما لضبطها ومناولة مصنفاتها .

وللجامع 18 بابا و 300 سارية ـ عشر منها من حجر ملون وثلاث تقع تحت الثريا الكبرى تبصـــر منها جميع ابواب الجامع ـ و 21 بلاطا و 130 ثريـــة

---

(159) يذكر صاحب القرطاس ان كتابات التأسيس مؤرخة بعام 528 (ج 1 ص 85) ، ووهم صاحـــب الجذوة فأعطى تاريخا محرفا هو 710 هـ .

(160) احرقت القبة الخشبية عام 571 فصنعها الموحدون من الجص عام 600 هـ من بيت المال ، فى حين صنع المرابطون بابي السماط والشماعين مع القبتين من مال الاحباس .

(161) يوجد بجامع القرويين 19 بلاطا موازيا للقبلةوقد لاحظ جورج مارسي ان هذا الاسلوب يرجع عهده الى صدر الاسلام ونجده فى مصر (جامع عمرو وجامع ابن طولون) وظل هو الغالب فى مساجد فاس (فن الاسلام ص 95) .

(162) الانيس المطرب ج 1 ص 87 .

(163) الانيـــس ج 1 ص 88 .

(164) كتاب الفن الاسلامي طبعة 1926 ج 1 ص 302 وقد اكد مارسي هذا الزعم فى الكتاب الذي صنفه عام 1954 وهو « الهندسة المعمارية الاسلامية فى الغرب » ص 188 الا ان الاستاذ طيراس ايد مقالة ابن ابي زرع .

(165) زهـــرة الآس ص 65 .

من النحاس مختلفة الالوان والصناعات والاشـــال والهيـــآت .

اما جامع الاندلس فقد وقع الشروع فى بنائـــه كذلك عام 245 هـ وكان فيه ستة بلاطات وصحن صغير وزاد فيه عامل الناصر الاموي الصومعة عام 345هـ (166) ونقلت اليه الخطبة من جامع الاشياخ قبيـــل ذلـــك (321 هـ) وبعد نحو من ثلاثة قرون عام (600 هـ) امر الناصر الموحدي ببناء الباب الكبير الذي فيـــه درج بأسفلها شباك من خشب الارز فيه ثلاثة ابواب ، فى الاوسط بيلة من الحجر الاصفر ينفجر بها الماء من وادي مصمودة . وبأعلى الباب قبتان احداهما من جص مقربص الداخل ، والثانية من خشب الارز .

كما امر الناصر ببناء سقاية ومدخل لمصلـــى النساء ومصرية لائمة الجامع ودار للوضوء بخصتهـــا تحاكي التي بجامع القرويين وعدد بلاطاته بعد سنـــة 695 هـ خمسة عشر من الشرق الى الغرب وثلاثـــة عشر من القبلة الى الجوف وتسعة ابـــواب و 134 ساريـــة .

وكانت فاس فى هذا العصر كما وصفها المراكشي « حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ... رحل من هذه وهذه مـــن كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل اكثرهم مدينة فاس ، فهى اليوم على غاية الحضارة واهلها فى غاية الكيس ونهايـــة الظـــرف ، ولغتهم افصح اللغات فى ذلك الاقليم ، وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب » (167) .

وقد لاحظ كوستاف لوبون ان مدينة فاس كانت تزاحم بغداد فى القرن العاشر الميلادي فكان بها نصف مليون نسمة و 800 مسجد وخزانة حافلة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية (168) وقد زعم استاذ ايطالي هو لويجي روسو انه اشترى من فاس مخطوطا نادرا من عشاريات تيتليف (169) حول التاريخ الروماني .

وقد وصف كابريال شارم مدينة فاس بانها اول مدينة مقدسة بعد مكة وانها كانت مركز القوة العربية فى عنفوان ازدهارها والعاصمة الفكرية والروحيـــة للغرب الاسلامي بفضل معاهدها الخالدة ومساجدهـــا الماجدة (170) ، وذكر مارسي (171) ان افريقيـــة نفسها وهي الوطن العتيق لعلماء الاسلام اصبحـــت تتلمذ لبرابرة الغرب .

وشبه علي باي العباسي هذه المدينة باثينة لوفرة علمائها ومعاهدها (172) .

ولاحظ ليفي بروفنصال انها لم تكن اقل مكانـــة من عواصم الاسلام الاخرى (173) ، نعـــم فى هـــذه المدينة تبلورت الحضارة العربية التى تفتقت بالمغرب فتلألأت اشعتها على اوربا (174) ، وقد احتفظت فاس على ممر العصور باشعاعها فهي ما زالت دار العلـــم وجامع القرويين ما زال اول مدرسة فى الدنيا (175).

وذكر مارمول انه كان بفاس 200 مدرسة ، ونقل الكانوني فى « شهيرات نساء المغرب » عن مؤرخ اوربي خصص كتابا لفن الاسنان بالمغرب لا حظ فيه ان مدينة فاس كان بها فى القرن الرابع الهجـــري « مدرســـة

---

(166) حسبما فى عتبة بابها ـ زهرة الآس ص 81 .
(167) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب سلا عام 1357 ص 221 .
(168) حضارة العرب ـ الطبعة الفرنسية ص 263 وقد ذكر دلفان (ص 81) ان هذه الخزانة كانت تحتوي على 000 30 مجلد ، كما ذكر كودار (وصف تاريخ المغرب ج 2 ص 376) ان يعقـــوب المرينـــي استرجع من المسيحيين عددا من المصنفات العربية واهداها الى القرويين ، ولاحظ ميلي (كتـــاب الموحدين ص 101) ان يعقوب الموحدي كانت له خزانة تضاهي مكتبة الخليفة الاموي الحكم الثاني وقد اهداها كذلك الى القرويين ، وفى عهد المولى زيدان السعدي اختلس قنصل فرنسي اربعة آلاف مخطوط عربي وباعها لاسبانيا فكانت من نواة الاسكوريال .
(169) ولد هذا المؤرخ الروماني عام 59 قبل الميلاد.
(170) كتاب سفارة بالمغرب (ص 255) .
(171) كتاب الفن الاسلامي ج 2 ص 465 .
(172) سفريات علي باي العباسي الى افريقيا وآسيا ـ باريس عام 1884 ج 1 ص 137 .
(173) مجلة هسبريس ـ عام 1952 ص 3 .
(174) كتاب سفارة المغرب ص 228 .
(175) دلفان فى كتابه « فاس وجامعتها » (ص 2 1)

للطب » وقد احيلت المدرسة المرينية بدار المخزن فى فاس الجديد حوالي عام 1844 م الى مدرسة للمهندسين نظم فيها السلطان دراسة العلوم الحديثة (176) .

وقد اكد مولاي عبد الرحمن بن زيدان (177) ان خريجي « مدرسة البوليتكنيك » (الفنون) التي اسسها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بفاس الجديد تابعوا دراستهم فى معاهد انجلترا (مثل الصدر الاعظم الجباص) وايطاليا (مثل محمد بناني العلمي) .

وكان بجامع القرويين اواخر القرن الماضي 700 طالب ونحو الاربعين استاذا وظل العدد جامدا الى ما قبيل الاستقلال حيث اصبح ينيف على 6 آلاف، وكان هؤلاء الطلبة يسكنون بالمدارس ويتمتعون بنظام الخبزة الذي عوض الآن بمنح دراسية ومطاعم مدرسية وداخلية منظمة فى الشراردة .

جامع حسان

ان هذا الجامع من مآثر الموحدين الخالدة التي حققت وحدة الفن الشرقي والفن الاندلسي المغربي ، فهو رمز لفخامة الدولة الموحدية ومشاعرها فى السمو والعظمة وذوقها فى التناسق الجامع بين الفخفخة والبساطة وهو مجهود رائع اذا اعتبرنا انبثاقه من اسرة « موحدة » كانت تعمل على دعم الاسلام فى صفائه الاصيل ـ وحنيفيته السمحة وعظمته الساذجة.

ويقع جامع حسان شمالي شرق مدينة الرباط على علو نحو 30 مترا فوق البحر وهو المسجد الثاني الذي بناه الموحدون بالرباط بعد مسجد القصبة العتيق وبانيه هو يعقوب المنصور الذى اتمه عام 592 هـ ويظهر ان بناءه لم يتم ومنارته اقرب عهدا من منارة الكتبية ومنارة جامع اشبيلية المعروف بالخالدة ، وهي مربعة كمنارة جامع دمشق ، يبلغ عرضها ربع طولها حسب التقليد المعماري ، وهذا العلو وهو 64 مترا ـ يجعل من منارة حسان اعظم منارة فى الغرب بل حتى فى الشرق (178) ، اما الجامع فانه مربع المساحة تقريبا هندسي التقسيم لتساوق سواريه الفاصلة بين صحونه الواسعة ، ومحرابه مربع الشكل على خلاف المحاريب المغربية ، وهو منحرف بعض الشيء عن القبلة مثل جامع القرويين (179) .

رسالة الأوقاف المغربية

لقد تذرع المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد ـ بشتى الوسائل لتركيز الفكرة الاسلامية وتحقيق ازدهار المسلمين فى آن واحد بواسطة (رباع) توقف على المؤسسات الدينية والاجتماعية ،

---

(176) الجريدة الاسبوية عام 1917 ـ كتابات عربيةبفاس ـ الفريد بيل ج 10 ص 152 وكانت توجد بالجديدة فى نفس الوقت مدرسة مركزية للمدفعية (كتاب امبراطورية تنهار ص 16) وقد اجري تدريب لاثني عشر طالبا مغربيا فى المدرسة العسكرية بمونبيليي عام 1885 وانهوا دراستهم عام 1888 (هسبريس ج 41 عام 1954 ص 136 وقد وجه مولاي الحسن طلبة الى انجلترا وايطاليا واسبانيا والمانيا (المغرب الحديث ايركمان ص 114) وحتى الى امريكا (كتاب سفارة بالمغرب ص 238) .

(177) الاتحاف ج 3 ص 367 .

(178) لاحظ ابن بشكوال ان منارة قرطبة احسن منارات الاسلام .

(179) وقد فند ابن سعيد ذلك ملاحظا ان منارة الكتبية ومنارة اشبيلية الموحديتين اضخم من منارة قرطبة (نفح الطيب المقري ج 1 ص 267) ومساجد الريف شمالي الغرب عارية من المنارات وانما تمتاز عن باقي الدور بعلم أبيض (المغرب المجهول ـ موليراس ـ باريس عام 1895 ج 1 ص 144).

وقد ساهم الملوك والشعب فى هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهر لتحقيق غاياتها واذا راجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا ان الاوقاف تتوفر فى جميع انحاء القطر على احسن الاراضي والعقارات حتى على السوائم الحية فى الجبل علاوة على الغراسات الثرية ، وقد وقع تفويت جانب كبير من الاراضي الخصبة الشاسعة والاملاك المختلفة فى ابان الحماية ولا تزال صكوك تحبيسها موجودة الى الآن .

وقد تبلور الاتجاه الحبسي على الخصوص منذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسف المارستانات للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم واجرى لهم المرتبات فى كل شهر وبنى الزوايا فى الفلوات واوقف لها الاوقاف الكثيرة لاطعام عابري السبيل وذوي الحاجات (الذخيرة السنية ص 100)، وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث فى هذه الطريق الجديدة حتى انشأ ابو الحسن (فى كل بلد من بلاد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط (الجزائر) مدرسة فقامت مؤنساته الاجتماعية فى تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا (الدار البيضاء الحالية) وازمور وآسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان وعاصمة الجزائر (المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ص 35 مجلة هسبريس عام 1925) ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات خصصت قسطا من املاكها للاسعاف الاجتماعي وهي الاوقاف المعينة على الخبز مثلا الذى كان يوزع اسبوعيا او يوميا حسب اهمية الارباع ، هذا علاوة على الاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم التي كان يتعيش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة على رواتب العلماء والطلبة .

واذا اعتبرنا ان مدينة مغربية كانت تتوفر فى كل حي من احيائها على عدة مساجد بأوقافها لمسنا ضخامة الثروة الجسيمة فى المغرب ، ويكفي ان نعلم ان فى فاس وحدها احصى فى زمن المنصور ومحمد الناصر الموحدين (785 مسجدا و 42 دارا للوضوء و 80 سقاية عمومية و 43 حماما) (زهرة الآس ص 33) وكلها حبسية .

وكانت فى المغرب اوقاف من نوع خاص (180) كالتي تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا فى منزل مؤثث ابان الزفاف وكالتي تنفق فى تجهيز العروس المعوزة ، واوقاف الاواني المكسرة ، وتعهد وتغذية الحيوانات والطيور (كدية البراطيل بفاس) وذلك بالاضافة الى تأسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها ، والشبه هنا ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (181).

وقد اكد الجزنائي فى زهرة الآس (ص 75) (182) ان ما يظهر من انحراف قد يقرب من الصواب على راى

---

180) وكانت هنالك احباس من نوع خاص فى كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب نشر المثاني ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازي (ج 1 ص 20) وان كراسي العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري لها احباس (ج 1 ص 38) ومن احباس فاس استيفاء ابن حجر على الصحيح فى التدريس (نيل الابتهاج ص 169) وكان بعض العلماء لا ياكلون من مال الاحباس مثل سيدي عبد القادر الفاسي (السلوة ج 1 ص 310) .

181) ذكر صاحب جذوة الاقتباس ان كثيرا من اقاف المساجد ادخلها اهل فاس فى منافعهم وحسبوها من اموالهم ايام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضي عبد الحق بن معيشة الغرناطي فتوجه الطلب على النظراء والوكلاء فى ذلك ومحاسبتهم فأبرزت المحاسبة 000 80 دينار (ص 42) . وقد ذكر ميشوبيليز فى المستندات المغربية(عام 1907 ص 192) ان الاحباس احتفظت بادارتها المستقلة الى عهد مولاي عبد الرحمن الذي قرر ضمها الى دوائر المخزن والغي النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعوضهم فى كل مدينة بناظرين يعينهما السلطان .

182) لاحظ بعض فقهاء فاس على الامير ابي يوسف بن عبد الحق المريني ما فى بعض مساجد فاس من انحراف فجمعهم الامير وذكروا ان جامع القرويين نصبت قبلته على سمت القبلة التي نصبها المولى ادريس وقد صلى اليه جماعات من العلماء والصلحاء والقضاة وامراء العدل فما غيروا ذلك ، وذكر ابن القاضي فى الجذوة ان مساجد فاس كانت قبل اليوم 785 واما اليوم (عصر المنصور السعدي) فلا تحصى كثرة وعدد حماماتها قبل اليوم 93 ، واما اليوم فلا عدد لها (ص 8 2) .

من يرى ان المطلوب من قبلة سائر الآفاق انما هو الجهة لمكة والجهة حاصلة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم ما بين المشرق والمغرب قبلة .

ولعل الموحدين تشبثوا بظاهر هذا الحديث الذى يماثله الحديث الآخر الذي رواه البخاري فى عدم استقبال القبلة فى قضاء الحاجة حيث قال صلى الله عليه وسلم : « شرقوا او غربوا » اى بالنسبة للمدينة المنورة ، وقد وهم الاستاذ طيراس فى كتابه « سمت المحراب فى المساجد » حيث اول هذا الانحراف تاويلات مختلفة ضاربا صفحا عن تمسك الموحدين بظاهر الحديث .

مِنْ رَوَائِعِ الفَنِّ الأَنْدَلُسِيِّ

لعل الفن الاندلسي المغربي من اعرق الفنون التي خلفتها العصور الوسطى ، فمنذ القرن الثاني الهجري وقف عبد الرحمن الداخل مؤسس جامع قرطبة مشدوها معجبا امام مآثر الرومان الرائعة التي لقيها حيثما مر بالبلاد الاسبانية فحاول ان يثبت فى هذا المسجد ما راعه فى الفن الجديد الذي ما لبث ان تطعم بالعناصر الطريفة المقتبسة من اليونان او عن طريق العلماء والفنانين البيزنطيين ، وهذا الفن الذي نشأ عام 786 م – كما يقول طيراس – ما زال يعيش ضمن الحرف والمهن فى كبريات الحواضر المغربية فهو فن منبثق من حضارة واحدة ولد فى اسبانيا وترعرع فى الحواضر الافريقية فهو اذن وليد المدنية الاندلسية بقدر ما هو منبعث من معطيات الاسلام .. ولا يمكن ان نعطي فى هذه العجالة نظرة شاملة على مجموع المآثر الاندلسية فلذلك سنقصر حديثنا على بعض المظاهر البارزة للفن الاندلسي الاسلامي لجامع قرطبة واشباهه .

فقد اصدر الامير الاموي عبد الرحمن الاول امره بالشروع فى بناء جامع قرطبة عام 170 هـ غير ان المنية عاجلته بعد سنتين فاستأنف ولده هشام المشروع الضخم الذي لم يتم على شاكلته الحالية الا بعد قرنين ونصف قرن ، ولكن المعالم الاولى التي خطها الامير عبد الرحمن ظلت سائدة فى التوسيعات المتوالية بحيث يمكن القول بأن فنا جديدا انبثق فى الغرب منذ عام 170 هـ (اى 786 ميلادية) مستمدا تنميقاته ومواده المرمرية وسواريه من بقايا الرومان ، ولكن رسومه مقتبسة من جامع دمشق وجامع بغداد والمسجد الاقصى .

ويشكل هذا المسجد الآن مربعا (طوله 180 مترا وعرضه 130 مترا) ثلثاه اروقة للصلاة والثلث الباقي صحن وهو محاط بسور مسنن مدعم الجوانب فتحت فى اضلاعه ابواب رائعة اغلق اليوم معظمها لوقوعها فى اجنحة هذا المعبد الكبير الذى اصبح كنيسة ، وقد اسس الجامع على حافة الطريق المؤدية الى قنطرة (183) الوادي الكبير قبالة القصر الملكي بحيث لم تتسع مساحته تدريجيا الا نحو الجنوب والشرق .

وكان هذا المسجد كنيسة اول الامر فحذا الامير حذو الخليفة عمر بن الخطاب فى الاقتسام وجرى فى قرطبة ما جرى بالنسبة لكنيسة القديس جان بدمشق حيث اقتطع المسلمون نصف الكنيسة وتركوا الباقي للمسيحيين الا ان رحاب الجامع الجديد ضاقت بعد ان اصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الاموية فى الغرب الاسلامي فقرر عبد الرحمن الاول بعد نصف قرن اقتناء النصف الباقي وتأسيس مسجد كامل فوق المجموع ، فاقتطع من غنائم ناربونة 80 او مائة الف مثقال لهذه الغاية ثم زاد نجله هشام الاول سقائف للنساء وحوضا للوضوء ومنارة ويظهر ان البناء توقف فى عهد الحكم الاول واستؤنف عام 218 ايام عبد الرحمن الثاني باقامة تسعة بلاطات جديدة مدعمة بثمانين سارية فى ظرف 15 عاما ، ومن سنة 234 هـ الى منتصف القرن الرابع تم نقش وترخيم طرر المسجد وبناء المقصورة ومستودع الأموال وتجديد الحوض ... والسقائف

(183) قنطرة قرطبة احدى اعاجيب الدنيا بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها 800 باع وعرضها 20 باعا وارتفاعها 60 ذراعا وعدد حناياها 18 وعدد ابراجها 19 (نفح الطيب – المجلد الاول – القسم الاول طبعة ليد عام 1855 ص 314) .

واقيم ساباط ـ بين القصر والجامع ـ اما عبد الرحمن الناصر فقد اهتم بالمنشآت العسكرية والمدنية اكثر مما اعتنى بالمؤسسات الدينية ومع ذلك فقد صرف على الجامع نحو ربع ما انفقه على قصر الزهراء (المغرب ج 2 ص 344) فهدم منارة هشام الاول واقام مكانها صومعة جميلة .

وقد كان للحكم الثاني اهتمام خاص بالجامع حتى اشرف بنفسه على رسم تصميم التوسيع بحضور فقهاء ومهندسين وبنى بلاطات ومحرابا جديدا (184) واقام قببا فى البلاط المركزي والبلاطين الجانبيين قبالة المحراب مع تطريزها بالمرمر المنحوت والفسيفساء وهو الذي جلب الفسيفساء عام 354 من مملكة الروم اقتداء بالوليد فى بناء مسجد دمشق حيث اوفد رسلا الى امبراطور بيزنطة فرجع الوفد بالصانع ومعه من الفسيفساء 320 قنطارا هدية فرتب جملة من المماليك لتعلم الصناعة فابدعوا واربوا على الصانع الذي صدر راجعا عند الاستغناء عنه .

وفى عام 356 هـ اجرى الخليفة الى سقايات الجامع ماء عذبا من عين بجبل قرطبة « خرق له الارض واجراه فى قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة اودع جوفها انابيب الرصاص » .

وقد هدم منبر الجامع عام 1572 م ولكن الجامع احتفظ منذ تسعة قرون بروائه وثرائه ووميض نقوشه ومناعة هيكله .

اما مدينة الزهراء فقد ابتدىء بنيانها ايام الناصر فى اوائل سنة 325 وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف سوى التبليط فى الاسس وجلب اليها الرخام من قرطاجنة الافريقية ومن تونس وكان فيها من السواري 4313 جلبت بعضها من افريقية وعددها 1013 واهدى اليه ملك الروم 150 والباقي من رخام الاندلس .

وقد نحت فى مدينة الزهراء حوض عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعا بالدر النفيس وبلغ عدد الدور داخل الزهراء اربعمائة دار بينما كانت عدة الدور داخل قرطبة 000 113 دار و 000 3 (185) مسجد و 28 ربضا منها مدينتا الزهراء والزاهرة .

وقد جلب الناصر رخام الزهراء الابيض من المرية والمجزع من رية والوردي والاخضر من افريقية والحوض المنقوش من الشام وقيل من القسطنطينية وفيه نقوش وتماثيل وبنى فيها قصر الخلافة وسمكه من الذهب والرخام الغليظ وفى وسطه اليتيمة المهداة من اليون ملك القسطنطينية (186) وقراميد هذا القصر من الذهب والفضة وفى وسط هذا المجلس صهريج مملوء بالزئبق وفى كل جانب منه ابواب انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب اصناف الجواهر قامت على سوار من الرخام الملون والبلور الصافي . وكان الامير يامر بتحريك الزئبق فيلمع لمعان البرق من النور ويخيل للناظر ان المجلس قد طار ما دام الزئبق يتحرك وقد قارن المقري الزهراء بالقصر الذي شاده ملك طليطلة المامون بن ذي النون بها حيث صنع فى وسطه بحيرة وفى وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب وجلب الماء على راس القبة بتدبير احكمه المهندسون فكان الماء ينزل من اعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض فكانت قبة الزجاج فى غلالة من ماء قد سكب خلف الزجاج لا يفتر عن الحركة ، منظر عجيب (187) .

وقد لاحظ طيراس (188) ان اساليب النقش فى مدينة الزهراء مقتبسة من اليونان والبزنطيين فى حين

---

(184) نقل المقري عن صاحب المغرب عن ابن شكوال ان الحكم المستنصر استحضر العلماء للمشورة فى تحريف قبلة جامع قرطبة الى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر فى قبلة جامع « الزهراء » فقال له الفقيه ابو ابراهيم انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الامة فاخذ الخليفة برايه (النفح ج 1 ص 369) .

(185) ذكر المقري ان دور قرطبة وارباضها بلغت ايام ابن ابي عامر 13077 دارا للرعية و 60300 دار للاكابر و 80455 حانوتا (نفح الطيب ج 1 ص 356) .

(186) المغرب ج 2 ص 345 .

(187) نفح الطيب ج 1 ص 327 .

(188) كتاب الفن الاسباني المغربي ـ باريس 1932 ، ص 96 .

ان محراب قرطبة (189) شبيه بباب خزانة مسجد سيدي عقبة ، ومعلوم انه في الوقت الذي وسع فيه الحكم الجامع الاموي كانت قد مرت أزيد من مائة وعشرين سنة على اقامة مسجد القيروان الذي كان يعتبر اذذاك اوسع واجمل مسجد في الغرب الاسلامي ويلاحظ كذلك التأثير العراقي العباسي في مؤسسات قرطبة كالقسي المفلوقة او المفصصة على غرار ورق الاشجار وكذلك في نقش السقوف الهندسي والقباب المنمقة في شكل عروق واضلاع .

اما الرسوم الزهرية فالظاهر انها من ابتكار الاندلسيين (190) وتتجلى التقاليد الاسبانية الصرف في رؤوس الاعمدة المرمرية التي توجد بقاياها خارج قرطبة في الكتبية بمراكش وفي مسجد اشبيلية والمتاحف وقد نحت الرخامون القرطبيون عددا من اجمل هذه العمد في العصور الوسطى .

وتظهر المجالي الثانوية للفن الاموي في القلاع والاسوار (مدينة الزهراء وطليطلة)) ومعلوم ان خلفاء بني امية كانوا من كبار بناة الحصون في الشق الغربي للعالم الاسلامي ولعل مبانيهم العسكرية تفوق في ضخامتها ما اسسوه من مساجد وقصور .

وفي عام 368 امر المنصور ببناء « الزهراء » بطرف البلد على نهر قرطبة فتمت في عامين فاتخذ فيها الدواوين والاهراء واقام خلالها المنازل وجليلات القصور والاسواق واتصلت ارباضها بأرباض قرطبة (191) ، وقد استمر الطابع الاموي العام في ايام حجابة المنصور حيث زاد ابن ابي عامر بشرقي الجامع بلاطا امتد طولها من اول المسجد الى آخره وقصد في هذه الزيادة المبالغة في الاتقان والوثاقة دون الزخرفة (المغرب لابن عذارى ج 2 ص 429) وبلغ عدد السواري 1417 وعدد الشرفات 280 وعدد خدام الجامع 159 شخصا وعدد القومة 300 .

وتتسم النقوش العامرية بالطابع النباتي غير ان الرموز الحيوانية اتخذت مكانة جلى في فن النحوت المرمرية وتوجد جفنتان من المرمر احداهما بمتحف مدريد والاخرى بمدرسة ابن يوسف بمراكش تحمل اسم عبد الملك نجل المنصور ، ومن جملة صور الحيوانات المنقوشة في هذا المرمر النسور والعقبان والظباء والاسود والفهود والطيور ، وهذا يدل على ان الاستمداد من الطبيعة لم يكن خاصا بالنقوش الخزفية او العاجية وقد خلف لنا العهد الاموي بالاندلس مجموعة من التحف العاجية تعتبر من اجمل ما يوجد في العالم (192) وما زالت تفرزت شمالي المغرب تصنع الى الآن نماذج رائعة من هذه العلب والصناديق والاغشية العاجية ولعل الفن الاموي يستمد هذه البدائع من الفنين العباسي والفاطمي ، ويمكن القول بانه اذا كان الاثر البيزنطي جليا في مدينة الزهراء واذا كان التأثير العباسي قد بدا يظهر في الصنائع ايام الحكم الثاني فانه استقى نقوشه الخزفية وصوره العاجية وقسما من نقوشه الهندسية من العراق ولكنه اضفى عليها طابعه الخاص .

وهكذا فخلال ثلاثة قرون (من القرن الثاني الى القرن الرابع الهجري) ظل الفن الاندلسي موصولا بالاسرة الاموية المالكة وبعاصمة قرطبة ثم انتشر في باقي ربوع الاندلس وحدود قشتالة فاستعملت الاساليب المعمارية والنقوش القرطبية في مساجد كبريات المدن وقصورها وقلاعها وبعد سقوط الخلافة الاموية والحجابة العامرية تمزقت وحدة الاندلس ونشأت مصانع في مدن لم يكن لها سابق نشاط فني وغرست البلاطات الاقليمية في عهد ملوك الطوائف جذور الفن الاندلسي في المدن الصغرى حيث عاش طوال قرون ثم ما لبث الغزو المرابطي الاندلسي ان فتح باب افريقيا الشمالية في وجه الفن الاندلسي الذي سادت معالمه في المدن المغربية ، انه لم يبق الآن اي مظهر لمؤسسات ملوك الطوائف باستثناء القصور الجعفرية التي اقامها بنو هود في سرقسطة (193) والتي تدل على مدى المجهود الذي بذله النقاشون في هذا العصر ، تزايد النقوش الزهرية في شكل دقيق وظهور القسي المتقطعة واتساع الاشكال الهندسية).

وقد عرف المرابطون كيف يقتبسون من الفن الاندلسي وينقلون الى المغرب بدائع هذا الفن ويعتبر محراب تلمسان وروائع القرويين اجمل ما اهداه

---

(189) ص 110 .
(190) ص 141 .
(191) النفح ج 1 ص 380 .
(192) طيراس ـ الفن الاسباني المغربي ص 173 .
(193) طيراس ص 197 (في عهد ابي جعفر المقتدر ، ص 202) .

المرابطون الى الافارقة ، واذا كان المرابطون قد شجعوا انتشار الفنون الاندلسية دون مساس بروحها فان الموحدين تمكنوا من اضفاء طابع خاص على مجموعها ولعل ذلك راجع لكون ملك المرابطين لم يدم طويلا وان دولتهم استؤصلت فى عنفوانها ، ومع ذلك فقد مهدوا الطريق للموحدين وفتحوا مدن افريقيا على مصاريعها فى وجه الفن الاندلسي على ان ظهور الدولة الموحدية غير الظروف التي عاش فيها الفن الاندلسي فاتسع نطاق هذا الفن وانفسح مجاله مع تبلور وسائله واتساق مظاهر كماله ، واذا كان عبد المومن قد اتجه خاصة الى اقامة مؤسسات بالمغرب (تازة ومراكش) فان الاندلس احتلت المكانة الاولى فى عهد ابي يعقوب الذي جدد اسوار اشبيلية واقام قصبة انخسفت ازاءها انوار قصور بني عباد ، وبنى أكبر مسجد فى الاندلس (194) ضاهى به جامع قرطبة وكتبية مراكش الذي بناها والده ، كما نافس بقصور القصبة (مراكش) مدينة الزهراء نفسها .

ثم جاء المنصور فاتم جامع اشبيلية ومنارته العجيبة Geralda ومعماريات القصبة بمراكش ، وبنى رباط الفتح (قرب قصبة الودايا التي هي من مخلفات جده) وشرع فى بناء جامع حسان ثم واصل ولده الناصر نشاط الاسرة المعماري فأسس اسوارا جديدة بفاس ووسع جامع الاندلس ولكن هزيمة الموحدين بالاندلس فتحت ابواب اسبانيا فى وجه الصليب على ان الهندسة المعمارية العسكرية الموحدية لم تتطور فى العدوتين الا فى ميدان النقش حيث استعيض عن الحجر المنجور وعن الرخام بمزيج من الملاط (الطين الذى تطلى به الجدر (195) والرمل والماء وهو الاسلوب الاقتصادي السريع فى البناء مما اثر تأثيرا سيئا فى مناعة الحصون وفى قيمتها الاستراتيجية غير ان استمرار الخطر المسيحي فى الاندلس حدا الموحدين انفسهم الى نوع من العناية بالهندسة العسكرية وواصل بنو نصر جهودهم فى تجديد الاساليب العتيقة بالاستمداد من الاجهزة المسيحية .

ويمكن القول ان الطابع العام فى المعماريات الموحدية هو الفخامة والاصالة مع مهارة المهندسين فى فن التشكيلات والتصويرات ولذلك اتسم الفن الاندلسي المغربي بأعظم وأروع مما اتسمت به الفنون الاخرى مثل قربصة جامع اشبيلية الذى يحتوي كجامع الكتبية على تسعة عشر بلاطا مع بلاط اوسط وخمس قباب وجدر من الآجر حسب التقاليد الموحدية ولكنه احتفظ ببعض المظاهر الاموية الملحوظة فى جامع قرطبة كالابراج التى تسند الجدر ويبلغ عمق جامع اشبيلية ضعف عمق الكتبية (110 على 150 مترا بدل 60 على 90 مترا) .

اما القباب التي لم تكن معروفة فى التقاليد الاموية والتي تشبه مقربصات العراق وفارس فانها تبتعد كثيرا عن المقرنصات المصرية ومع ذلك فان المقرنصات الموحدية تمتاز بتوريقات اموية المحتد وفى خصوص الكتابات نلاحظ انه لا تكاد توجد فى الاسلام مؤسسات اقل كتابة من البناءات الموحدية اللهم الا خارج المساجد كبعض الابواب الكبرى حيث تبرز حروف كوفية رائعة هذا بينما تسود التسطيرات الزهرية والتوريقات الجريدية والسعفية على غرار اليونان والرومان والبزنطيين ، وقد عرف الفن الاندلسي نوعا من الجدة فى النشاط بفضل السلام والامن الناتجين عن سيطرة الموحدين على جنوب اسبانيا .

اما ما يخص الفن الشرقي فاننا نلاحظ تقارب الاساليب المغربية الاندلسية مع المناهج الفاطمية سواء فى المظاهر الهندسية ام النقوش (بالرغم عن استعمال الآجر فى المغرب والحجر والعقود والقباب المحدودبة فى مصر) وقد تباعدت طرائق التزيين المصرية السورية عن الاتجاهات العراقية لتقترب من المنازع المغربية ، ففي الكتبية ومسجد الحكم الفاطمي بالقاهرة مثلا توجد حجرية واقواس مسندة بأعمدة من الآجر ونقوش على الجبس وتوريقات زهرية ، وقد استطاع الفن الاندلسي فى عهد الموحدين الاستمداد من مصر عن طريق بني زيري ولكن غزو الاعراب الهلاليين قلص من هذا التبادل الفني بين الشرق والغرب الاسلامي ايام الايوبيين والمماليك بحيث ظل الفن الاندلسي منعزلا يتطور بسرعة خارقة فى اطار مقفل تبلورت اشكاله ومعالمه فلم يضف اليه المرينيون ولا الفرناطيون اكتشافات جديدة وانما هي تلوينات طريفة فى اطار عتيق زادتها جمودا حركة الغزو

---

(194) طيراس ص 280 .

(195) قوي استعمال الآجر فى المساجد والقصور باستثناء جامع حسان حيث تكثر السواري الحجرية وكذلك فى تلمسان ايام بني مرين .

المسيحي للاندلس ، وقد قويت فى هذا العصر بعض الاتجاهات مثل الاكتفاء بالآجر والملاط المرمل فى البناء وبنحت وصبغ الخشب والجبس، فالزليج اصبح يغطي اسفل الجدر ويكلل المنارات وتضاءل استخدام الحجر والمرمر وتقترب هذه النقوش الجبسية والخشبية المرينية النصرية من الاساليب الفارسية المعاصرة .

وقد تأثر الاسبان المسيحيون الذين عاشوا بين ظهراني المسلمين بالاندلس بالفن العربي الذي ظهرت بعض معالمه فى بناء الكنائس (ابهاء اشبه بمحاريب – قسى – قباب مورقة) كما احتفظ المدجلون (196) بصنائعهم واساليبهم الفنية ولكن الدولة لم تستخدمهم الا فى المؤسسات المتواضعة بينما استعمل الاسبان الواردون من الشمال فى بناء القصور والمعابد الضخمة عملة من الشمال او من فرنسا ثم من الفلاندر والمانيا وبذلك اصبح البعض يرى ان الفن المسيحي فى اسبانيا فن اجنبي مستورد من الخارج ، ويلاحظ وجود عنصرين فى فن المدجنين هما الفن الاندلسي القديم والفن المجلوب ، ففي طليطلة يتسم الفن المقتبس بالطابع الاموي بينما يصطبغ فن المدجنين فى اراغون – وهو ابرز انواع هذا الفن – بالطابع الموحدي لا سيما فى نقوش المنارات (الآجر والفسيفساء) وحتى العناصر المستوردة تتقارب من الفن الموحدي فى النحت والتزيين (ابواب جميلة ذات تسطيرات مضلعة كالتي سيصنعها المرينيون فى القرون التالية) وتوريقات زهرية كالمنابر الموحدية بمراكش او منبر البوعنانية بفاس .

وبعد سقوط طليطلة وقرطبة وبلنسية واشبيلية اصبحت غرناطة حاضرة لاعظم مملكة اسلامية في اسبانيا والتفت حول بلاط محمد بن الاحمر ابرز عناصر المعرفة والثروة والفن والصناعة (غراسات بلنسية ومصانع مرسية للاواني المذهبة والاسلحة والمرصعات) ولا توجد الآن فى غرناطة اية مؤسسة مهمة اقدم من قصر الحمراء باستثناء حماماتها التى يرجع عهدها الى العصر المريني الاول فبعد ما احتل امير قشتالة اشبيلية شرع ابن الاحمر فى بناء قلعة الحمراء ، وقد تحدث الادريسي عن الحرف الصناعية (فى الجزء المقتبس من النزهة (طبعة ليدن ص 208) فلاحظ ان مدينة المرية مثلا كان بها 800 طراز يعمل بها الحلل والديباج والستور المكللة والخمر وصنوف الحرير وصنوف آلات للنحاس والحديد ليس فى بلاد الاندلس احضر من اهلها نقدا ولا اوسع احوالا فيها 970 فندقا وفى شاطبة (ص 192) تصنع ثياب بيض من ابدع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد فى الرقة والبياض ، وقد واصل محمد الثاني بناء الحصون والقصور واسس ولده عبد الله جامعا فخما رائق الهندام مزدانا بالفسيفساء المنمقة ومسندا بأعمدة رائعة برؤوسها وقواعدها المفضضة ثم اكتملت بهجة الحمراء ايام الغني بالله لا سيما فى ساحة الاسود وردهة السفراء (197) .

وفى عهد اخيه ابى الحجاج انتظمت آخر النقوش والنحوت ونافس الاثرياء بدائع الحمراء بقصورهم الفاخرة وبمناهم المنتشرة فى سهول غرناطة (والمنية عبارة عن فيلا بدوية Villa de campagne)) وما زالت قيسارية المدينة الى الآن شبيهة بقيساريات فاس .

وتعتبر ساحة الاسود وردهات الاختين وبنى سراج من اروع ما حفظه الحدثان فى الحمراء وتقوم وسط الساحة فسقية تتفتح فى دائرتها اثنا عشر اسدا هي اهم واكمل انموذج للنقش العربي فى الاندلس وحتى فى الشرق وكتابات الحمراء الشعرية والنثرية من اوفر ما ازدان به الفن المعماري ايام بني الاحمر(198)

وبالقرب من الحمراء تنبثق جنة العريف Generalif التي هي إبدع مصطاف يتصوره الفكر بمائها الزلال وورودها الوافرة وعطورها الزكية .

تلك نظرة خاطفة على خواص الفن الاندلسي مقارنة مع معطيات الفن المغربي الذى ازدوج بها فى مختلف العصور ليشكل مزيجا رائعا يعتبر من دعائم التراث الاندلسي .

---

(196) وقيل المدجنون وهم المسلمون فى حكم الافرنج عند المغاربة (عن ابن فضل الله العمري – المكتبة الصقلية ص 150) .

(197) ردهة السفراء فى اشبيلية لا تحاذي الحمراء فى روعتها فحسب بل انها من اجمل ما خلفه الفن الموريسكي .

(198) الهندسة المعمارية عند العرب والمغاربة – جيرول دوفرانجي طبعة 1841 ص 153 (راجع فى قسمه الاخير نماذج رائعة من الكتابات المعمارية مع صور خلابة تمثل بدائع النقش فى قصور غرناطة فى الوانها الحقيقية .

الفنون الصناعية

هذا وان اوربا مدينة للعرب لا لليونانيين بالمعطيات الاولية لصناعتها الحديثة نفى الاقطار الاسلامية مثل مصر وسوريا والعراق والاندلس والمغرب كان للتقنية العربية خلال العصور الوسطى ـ وهي عصور العرب الذهبية ـ اثر عميق فى خلق وبلورة المناهج العلمية المنبثقة عن التجربة .

ففيما يخص صناعة الزليجى مثلا اكد المؤرخ كوهنيل (199) ان فسيفساء مدينة الزهراء من نوعين احدهما شرقي من سامرا (اي سر من راى) يرجع تاريخه الى القرن الثاني الهجرى والنصف الآخر من رائق صناعة الخزف المحلية المنجز فى القرن الثالث عشر والذى استمرت صناعته فى قلعة بني حماد وقد بحث كوهنيل فى اشبيلية عن اصل زليجي « البديع » الاسباني واوضح ان خزف مالقا المشهور ببريقه المعدني اللماع كان له طوال قرنين (من القرن الثاني عشر الى الخامس عشر الميلادي) صيت واسع تجاوز حدود الاندلس وظلت مالقا خلال مدة طويلة المركز الاندلسي الوحيد لصناعة هذا الصنف الرائع من الخزف ولكن الشريف الادريسي اكد ان هذه الصناعة عرفت فى عصره (اي القرن السادس الهجري) فى قلعة ايوب اما فى بلنسية فان الاخزاف ذات البريق المعدني لم تعرف الا فى القرن الرابع عشر الميلادي احتذاء بالنماذج المالقية وقد اتسعت شبكة التجارة الخزفية فامتدت الى الشرق وبقي الطابع الاندلسي الاسلامي مسيطرا حتى فى العصور التالية بعد استرجاع الاسبان للفردوس المفقود ـ على المصنوعات الخزفية التى ظلت الى عصور متأخرة تحمل اشارات واسماء عربية .

وعندما كشف عباس ابن فرناس الاندلسي وهو اول طيار عربي استخدم آلة لامتطاء الاثير ـ طريقة جديدة لصنع الزجاج من معدن الحجر تكونت آنذاك مجموعة من الصناعات سبقت البندقية الى كثير من الكشوف وغمرت العالم باصناف المنجزات من اقداح وعلب وانابيب واوان كيماوية مختلفة وكانت المصانع العربية تنفخ الزجاج وتفرغه فى قوالب منوعة وتنحته على غرار المصانع الحديثة وتأسست فى العالم الاسلامي فى ذلك العصر مصانع من هذا الطراز وقد وجد فى مدينة فاس فى ايام الناصر والمنتصر الموحدين اثنا عشر مصنعا للزجاج وامسى صناع حلب اخصائيين فى افراغ الاواني الزجاجية بينما اشتهرت هذه المدينة العربية كمركز عالمي لانتاج الزجاج .

وقد عرفت دمشق بفن الترصيعات والتذهيبات كما اشتهرت مصر بصفاء مصنوعاتها الزجاجية وقد اصبح العرب ينتجون نوعا من زجاج النوافذ والمصابيح وصنفا اشبه بالبلور الرقيق الذى كان يصنع فى بروسيا وتشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الاخيرة وكانت قصور العواصم العربية فى العصور الوسطى تتلألأ باشعاعات هذا البلور الزجاجي الخلاب وبانعكاساته الضوئية الاخاذة وكانت صناعة الخزف تحتوي على اروع المنتجات التى تزدان بها القصور معماريا واجتماعيا .

والعرب هم الذين « خلقوا » ـ كما يقول كوتيي ـ (200) الورق الذى عوض جزيد النخل وسعفها ورق الغزل وما عرفه المصريون والاشوريون من ادوات الكتابة وقد عثر المؤرخ الاسباني فى مكتبة الاسكوريال باسبانيا على ورق عربي مصنوع من القطن يرجع تاريخه الى عام 1009 ميلادية وهو اقدم من الورق الذى عثر عليه لحد الآن فى المكتبات الاوربية .

وكان بفاس وحدها اربعمائة من الارحى تصنع الورق الا ان ورق سبتة كان مشهورا بجودته وكذلك ورق شاطبة (الورق الشطبي) التى كانت تزود أوربا الغربية كما كانت مصانع بغداد تمون ـ حسب

---

(199) كتاب صدر عام 1925 فى ليبزيغ ج 2 ص 12 .
(200) عادات واعراف المسلمين ص 250
(201) حضارة العرب ـ كوستاف لوبون ـ الطبعة الفرنسية م 519 .

كوتيي ـ أوربا الشرقية منذ أواخر القرن التاسع الميلادي .

ومصر هي التى ادخلت الى أوربا ـ حسب كرونار ـ مطبعة الحروف المتحركة .

اما فى فن التوريقات والتسطيرات الخشبية والترصيعات العاجية فان دمشق ظلت ذائعة الصيت ازيد من الف عام وكانت منتجاتها محط تهافت رواد الفن فى العالم وما زالت ترصيعات دمشق مشهورة الى الآن بروعتها وجمالها (Damasquinage)

وقلة الفحم فى الاقطار الاسلامية قد عاق تقدم صناعة الحديد الثقيلة فترة طويلة الا ان ذلك لم يحل دون تطوير هذه الصناعة بفضل صلب (الفولاذ) سمرقند ودمشق ورصاص مصر الفاطمية ومستغلات النحاس والفضة فى العالم العربي . وكانت الموصل تصنع ادق موازين العالم كما كانت دمشق تقوم فى العصور الوسطى فى خصوص صناعة المنجانات المنوعة بالدور الذى تقوم به سويسرا اليوم فى صناعة الساعات الدقيقة وقد اهدى هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمان ساعة اعجبت اوربا بدقتها وآليتها وقد لاحظ سيديو ان أبا الوفا هو الذي كشف دقاق الساعة قبل العالم الايطالي غليلي ـ وقد اكد المؤرخ كوتيي أيضا ان الصناعة الكيماوية هي من جملة الكشوف العربية ، وقد كانت تنتج أصنافا مختلفة من المواد الصيدلية ، وقد صنف ابن البيطار كتابا حلل فيه مركبات الفين من العقاقير ما زال عدد كثير منها معمولا به فى التركيبات الصيدلية . واذا كانت الصناعة الكيماوية فى القرن الثامن عشر الميلادي قد استطاعت أن تحدث انقلابا فى الانتاج الحديث فلم يكن ذلك الا بفضل كشف العرب لبعض المركبات التى جهلها الاغريقيون كالبوطاس ونترات الفضة والكحول وحامض الكبريت ، وحامض النترات وملح الامونياك (النوشادر) ومركبات الزئبق (ومنها نقله من المائعية الى الغازية والعكس) .

وهنالك عدد كبير من المصطلحات الكيماوية عربية الاصل مثل الاكسير والالقالي Alcali (من القلى) كما اكتشف العرب بعض الطرق والاساليب الجوهرية فى الصناعة الكيماوية كالتصفية والتصعيد والبلورة والتحليل والتخثير وسبك الذهب والفضة وذلك لاستخلاص او تنسيق بعض التركيبات ، وقد اكد مؤلف (فيزاج دو لسلام) (وجوه الاسلام) ان التقدم الذي حققه المسلمون فى الكيمياء الصناعية تشهد به تلك المهارة القصوى التى برهن عنها الصناع العرب فى فن الصباغة واعداد الجلود وسقاية الفولاذ الخ ..

والعرب هم الذين كشفوا كذلك اصباغا وتلوينات لم يتمكن توالي القرون من المساس بفضاضتها وذلك فى صباغة القطن والحرير والصوف وتلوين الخزف الرقيق والزجاج ، ومعلوم ان أوربا مدينة للفيلسوف الرازي بمعرفة اسلوب الحامض الكبريتي كما ان الاندلسي جابر بن حيان يعتبر حتى عند الغربيين ابا لعلم الكيمياء . وكانت مصر تنتج فى العصور الوسطى أجود انواع الصابون وكانت مصانع الصابون موفورة فى الاندلس والمغرب والعراق حيث كان الصناع يستعملون صودا الاشنان المعروفة بخواصها الكيماوية التطهيرية فى تركيب الصابون . وفى مصانع النسيج بمصر كانت تنتج انسجة الكتان المطعمة بخيوط الذهب والفضة ، وكذلك اقمشة حريرية تتلون انعكاساتها الضوئية تبعا لساعات النهار ، وكذلك اصناف الوشي المخطط المستعمل فى التأثيث والاقمصة الفاخرة المحلاة بالذهب ، وقد أشار صاحب الاستبصار الى وجود نسيج مصنوع من الميكا فى المغرب فى القرن السادس الهجري اما صناعة الحرير فقد ازدهرت ازدهارا خاصا لاسيما بعد ما ادخل العرب دودة القز الى الاندلس فى القرن الثاني الهجري . وكانت انسجة الحرير تتحلى بفسيفساء من التوريقات والتسطيرات بعض نماذجها مستعملة فى المصانع الاوربية . وقد بلغت هذه الصناعة الحريرية اوجها فى المصانع السورية وما زالت ارق منتجات الحرير تحمل اسماء عربية مثل المصلين (من الموصل) والدمشقي والاطلسي الخ.. وقد استوردت فرنسا بعد الحروب الصليبية من المنسوجات الشرقية كميات هائلة وأولى الدول الاوربية التى استفادت من التقنية الصناعية العربية هي ايطاليا التى نشرت ذلك فى ربوع اوربا . وقد عثر فى مخطوط عربي يرجع تاريخه الى القرن السادس الهجري على أساليب البارود للمدافع ، هذا بينما عرفت أوربا المدافع لاول مرة فى حصار الجزيرة الخضراء من طرف الانجليز عام 1342 م ، وكان الانجليز يعملون آنذاك فى الجيش الاسباني وعرفت هاته المعركة بمعركة « كريسى » وقد ذكر جورج ريفوار ان من الكشوف العربية ذات الفائدة

الصناعية البارود وورق القطن والكتان والخرق الرثة وقد نسب كشف صناعة البارود مدة طويلة الى علماء غربيين مثل روجني باكون وشوارتز وغيرهما الا ان الابحاث التي قام بها كل من الاستاذين رينو وفافي ساعدت على التاكد من كون العرب هم الذين كشفوا الاسلحة النارية بعدما تمكنوا من استخدام القوة القاذفة الناتجة عن البارود وقد عثر في بعض الوثائق والمستندات الراجعة الى العصور الوسطى حسب كوتبي على تحليل لوسيلة صنع الثلج ـ ومعلوم ان الشام كانت تمد العراق ـ حسب القلقشندي (صبح الاعشى الجزء 14) ـ بالثلج في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكانت الهجن والسفن تتوالى بين البلدين مثقلة بهاته المادة في ايام الحر ، ولم تعرف اوربا صنع الثلج الا في القرن السادس عشر الميلادي . وقد عرف علم الحيل (الميكانيك) ازدهارا خاصا وتحتوي المكتبة التيمورية بالقاهرة على عدد من المخطوطات تعالج هذا الفن وتشير الى رسوم لبعض الادوات والآلات والدواليب والمنجانات المصنوعة في العصور الوسطى ، وقد تاثرت اوربا بالاساليب الآلية العربية كما تعطينا فكرة عن ذلك الآلات الدقيقة التي استعملها المسلمون في ابحاثهم وما زالت بعض مصنفات ابي القاسم الزهراوي حافلة برسوم الآلات التي استعملها في الطب الجراحي .